روايات جائزة نوبل

7

سلمى لاجرلوف

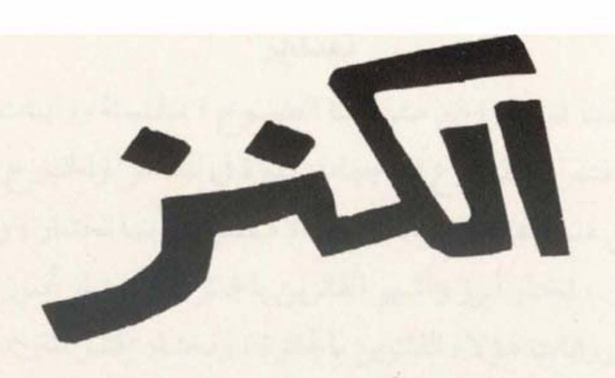
الكنز

5.8.2017

تقديم وترجمة

حسين عيد

الدار المصرية اللبنانية



The Treasure

رواية

سلمى لاجرلوف

نوبل 1909

حسين عيد تقديم وترجمة

روايـات جـائزة نوبـل

7

لاجرلوف ، سلمى .
الكنز The Treasure : رواية سلمى لاجرلوف ؛تقديم وترجمة حسين عيد
. ـ ط1. ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2009 .
160 ص ؛ 21 سم
تدمك : 7 ـ 485 ـ 427 ـ 977
1 ـ القصص السويدية .
أ ـ عيد ، حسين (مقدم ومترجم) .
ب ـ العنوان .   839,73
رقم الإيداع : 7970 / 2009

الدار المصرية اللبنانية

رئيس مجلس الإدارة : محمد رشاد
رئيس التحرير : فتحي العشري

16 عبد الخالق ثروت - القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى : شوال 1430هـ ـ سبتمبر 2009م .

تصدير

توقفنا فترة لنراجع مشروعنا الطموح « سلسلة روايات جائزة نوبل» ، فتسرب المشروع إلى جهات كثيرة في الداخل والخارج .. ومع هذا يظل مشروعنا هو الرائد وهو الأفضل ؛ لأننا نختار ، ونحسن الاختيار .. نختار أبرز وأشهر الفائزين بالجائزة ، ونختار أبرز وأشهر وأعظم روايات هؤلاء الفائزين بالجائزة ، ونختار أكثر المترجمين دقة ومهارة وتميزًا .. ولأننا نترجم عن اللغات الأصلية .. ولأننا لا نكتفي بالترجمة ، ولكننا نضيف المقدمات الوافية عن المؤلفين والروايات والمترجمين أيضًا .. ولأننا نعهد إلى الناقد المتميز «فتحي العشري» بالإشراف الكامل على السلسلة ، ونعهد إلى الفنان المتألق «محمد حجي» بتصميم الأغلفة والبورتريهات ، ونعهد إلى العاملين بإدارة النشر بالتحرير والمراجعة والتصحيح ؛ حتى تصدر كتب السلسلة في شكل متقن ودقيق .. ولأننا ننشر الكتب في أجمل قطع وأبهى شكل.

والأمل ، كل الأمل ، ألا نتوقَّف مرة أخرى ، حتى نستكمل مشروعنا الطموح «سلسلة روايات جائزة نوبل» ، الذي كسب ثقة جمهور قراء «الدار المصرية اللبنانية» .

والله الموفق ،

محمد رشاد

رئيس مجلس الإدارة

مفتتح :

ولدت سلمى لاجرلوف عام 1858 ، في ملكية صغيرة في مارباكا بجنوب شرق السويد. وكان أبوها ضابطًا متقاعدًا بالجيش .

ولعلّ من أهم أحداث طفولتها إصابتها بحادث نتج عنه عدم قدرتها على استخدام ساقيها لمدة عامين كاملين ، وعلى الرغم من شفائها إلا أنّ الحادث خلّف لديها عرجًا استمرّ معها طوال حياتها . وفي تلك السنوات كانت تجد ملاذها في حكايات الجدّة ، التي كانت تأسرها وتنشط خيالها ، وربّما كان ذلك وراء إقبالها على القراءة وكتابة الشعر ، لكنها لم تكن تفكر في النشر في تلك المرحلة بطبيعة الحال. كان هناك عنصر حاسم آخر تدخّل في طفولتها ، حين أخذتها الكاتبة آنا فريسل تحت جناحها ، وساعدتها على أن تحصل على فرصة لتمويل تعليمها ، وبعد أن قضت سنة تمهيدية التحقت سلمى عام 1881 بكلية تدريب المدرسات العليا في استوكهولم .

تخرجت في تلك الكلية عام 1885 ، وفي نفس العام مات أبوها ، فاضطرت أمّها إلى بيع بيت الأسرة في مارباكا لسداد الديوان ، ثم انتقلت سلمى لتعيش مع أمها وخالتها في لاندسكرونا ، حيث قامت بالتدريس في مدرسة ثانوية للبنات ، وبدأت تكتب في وقت فراغها .

في عام 1890 وبتشجيع من صوفي آدلر ، التي ساعدتها على نشر مقاطع من رواية كانت طور الإعداد بعنوان «حكاية جرسنا برلنج البطولية» في مجلة تعمل بها ، قامت سلمى بالاشتراك في مسابقة تعدها

نفس المجلة ، ففازت بالجائزة الأدبية الأولى ، فكان ذلك محفزًا لها على إكمال تلك الرواية . حين نشرت الرواية في السويد لم تحُزْ اهتماما يذكر ، إلاّ أنّها بعد ترجمتها إلى اللغة الدنمركية نالت استحسانًا نقديًّا عاليًا ، مهّد الطريق ليستمر نجاحها داخل السويد وخارجها .

في عام 1894 نشرت سلمى مجموعة قصص بعنوان «صلات خفية» ، ثم نالت منحة من الأكاديمية السويدية ، أتاحت لها الفرصة كي تترك التدريس وتتفرغ تمامًا للكتابة .

وفي عام 1897 سافرت إلى إيطاليا ، حيث كتبت هناك رواية «معجزات عدو المسيح» ، التي تجري أحداثها في جزيرة صقلية ، واستفادت فيها من أسطورة شخصية المسيح طفلا ، كما استطاعت أن تكتشف من خلالها ذلك التفاعل بين الديانة المسيحية والنظم الأخلاقية الاجتماعية .

وفي عامي 1901 و 1902 قامت بزيارة إلى مصر وفلسطين ، حيث زارت القدس ، وكتبت بتأثير منها رواية «الأرض المقدسة» ، عن فلاحي السويد الذين هاجروا إلى مدينة القدس ، وقد حققت تلك الرواية نجاحًا فوريًّا .

وفي عام 1903 نشرت مجموعة قصصية اسمها «أساطير المسيح» . وفي عام 1906 نشرت رواية «مغامرات نلز العجيب» ، فنالت نجاحًا منقطع النظير داخل السويد وخارجها ، حيث ترجمت إلى معظم اللغات العالمية.

وفي عام 1907 اكتشفت أن منزل الأسرة القديم في مارباكا، الـذي عاشت فيه طفولتها، معروض للبيع، فاشترته وعملت على تجديـده، وأمضت فيه سنوات عديدة أعادت أثناءها شراء الأراضي المحيطة به.

وفي عام 1909 نالت جـائزة نوبـل في الآداب، فكانـت أول كاتبـة تنال هذا الشرف. ثم قلَّ إنتاجها الأدبي خلال سنوات الحرب العالمية الأولى، نتيجة كونها من دعاة السلام، وهو ما تسبب في منع كتبهـا في تلك السنوات، لكنها استمرت في بذل جهود هائلة من أجل منـاصرة قضايا السلام، كما اهتمت في الوقت ذاته بقضايا المرأة.

اسـتمرت في الإنتـاج الأدبي حتـى نـشرت عـام 1930 «ذكريـات طفولتي»، وفي عـام 1932 «يوميـات سـلمى لاجرلـوف»، ووافاهـا الأجل في 16 مارس 1940.

مطلب وتحدٍّ:

في عام 1903، وصلتها رسالة من الاتحاد الوطني للمدرسين بالـسويد يلتمس منها أن تبدع كتابًا مدرسيًّا **«يستمتع الأطفال بقراءته في حجـرات الدراسة، ويثير اهتمامهم بجغرافية بلادهم؛ كي يعرفوها أكثر ويحبوها»**، على أن **«يكون الكتاب مثيرًا لاهتمام أطفال بلادنا، ليس بالجغرافيـا فقـط، وإنما بتاريخها العريـق أيـضًا، لافتًـا أنظـارهم إلى ماضـيها وإلى حكاياتهـا الشعبية وأساطيرها»**[1].

---

(1) من تعريف بالكاتبة كتبه عبد التواب يوسف في نهاية ترجمة روايـة «مغـامرات نلـز العجيب» للكاتبة سلمى لاجرلوف، من ترجمة شوقي جلال، الصادرة عـن الـدار المصرية اللبنانية عام 1999.

كان ذلك مطلبًا صعبًا من اتحاد المدرسين، لكنه عكس مدى اطلاعهم على الأدب السويدي عامة من رواية وقصة وخلافهما، ثم توقفهم بشكل خاص أمام أعمال سلمى لاجرلوف، والتي ربّما رأوا أنها تستند إلى سلاسة في الأسلوب، إضافة إلى قوة في المخيّلة، وقدرة متميزة على سرد حكايات وأساطير السويد بشكل آسر، يستند إلى حسّ جارف بالارتباط بالوطن. كما يكشف في الوقت ذاته، فكرا متفتحا لهؤلاء المدرسين، وليس انغلاقًا على ذواتهم وموادهم الدراسية، بما يسمح بالاستعانة بقدرات الآخرين المتميزة، مثل سلمى لاجرلوف، من أجل تأدية رسالتهم التربوية بشكل أفضل.

ولعلّ سلمى لاجرلوف – من ناحيتها – كانت مدركة لجسامة هذا المطلب، وما يحمّلها من أعباء ثقيلة، إلى جانب ما يتضمنه من جسارة لأنه يتدخل في صميم عملها بما قد يخرج به عن الإطار الذاتي، الذي اعتادت أن تبدع من خلاله. لكن، لعلها أيضًا كانت تمتلك إيمانًا عميقًا بدور الفنان تجاه تربية النشء ومسئولية الفن عن السمو بمشاعر وأفكار القراء نحو الأرقى والأسمى، إضافة إلى حسّ عميق بالدَّيْن لتراب الوطن، الذي غذى خيالها بمخزون حكاياته وأساطيره.

وربما من أجل كل ذلك شكّل ذلك الموضوع تحدّيًا أمامها، حفّز الكاتب الكامن في أعماقها، فاستنفرت قواها وتحمّست للقيام به، لكنها أجابت على اتحاد المدرسين بأنها ستحاول، لأن الفنان في نهاية

المطاف لا يعمل وفق أوامر تعطى أو بطريقة آلية ، بل لا بد لـه مـن أن يؤمن أولا بموضوع عمله ، وأن ينبع الاقتناع من داخله ، حتـى يمـلأ عليه شغاف نفسه ، ولا يملك فرارا من إلحاحه .

هكذا بدأت سـلمى رحلتهـا الإبداعيـة مـن مجـرد فكـرة أو بـذرة زرعت في مخيلتها الإبداعية ، وتدريجيًّا رأت ضرورة أن تلمّ بكل ما لـه صلة بتلك الفكرة ، فراحـت تتعمـق في تفاصـيل أبعادهـا ، فدرسـت جغرافية بلادها ، وقرأت تاريخها ، وتعرّفت على عالم النبات والطيـور والحيوان في السويد ، وكذلك عادات الـسكان وتقاليدهم . وكان تيـار الانجذاب لتلك الفكرة يشتد بمضي الوقت ، فتترك نفـسها لاندفاعـه النشط الوثاب.

استمرت رحلة معايشتها للموضوع ، أو فترة الحمل والإعداد لمدة ثلاث سـنوات ، ربـما ولـدت أثناءهـا شخـصية عقلـة الإصـبع «نلـز العجيب» ، فإذا هي تتعهده بالرعاية والاهتمام ، حتى تشكلت ملامحـه ونضج عوده ، فأيقنـت أن فـترة الحمـل قـد انتهـت ، وحانـت لحظـة الولادة والإشراق . وإذا هي تقبل على الكتابة ، فتكتب بتدفق رائعتها الروائية «مغامرات نلز هلجرسون العجيب» ، التي خرجـت إلى حيّـز الوجود عام 1907 ، فيسرت لأطفال الـسويد الارتحـال عـلى أجنحـة الخيال للتعرف على مختلف أرجاء بلادهم ، بكل ما تحمله أراضيها من أشكال حيـاة مـضمخة بعـادات الـسكان وحكايـاتهم وأسـاطيرهم ،

بأسلوب سلس جذاب ، فنالت شهرة واسعة داخل السويد ، سرعان ما انتشرت في مختلف بلدان العالم .

نلز العجيب :

كان هناك فلاحان فقيران ، كدّا في أرضهما المحدودة ، حتى ابتسمت لهما الحياة وأصبحا يمتلكان أبقارًا وإوزًّا ، وأكرمهما الله فأنجبا ولدًا ، هو «نلز» ، لكنه سبّب الحزن لهما ، لأنه كان صغيرا شقيًّا، طائشًا ، شريرًا ، قاسيًا مع الحيوانات ، سيِّئ الطباع مع الناس ، رافضًا تمامًا أن يتعلم أي شيء من المدرسة .

خرج والداه ذات يوم ، وتركاه وحيدًا في الكوخ الخشبي . وبعد ذهابهما وجد على صندوق أمه قزمًا صغيرًا سرعان ما اصطاده بشبكة صيد الفراش . لكن القزم رجاه أن يطلق سراحه ؛ لأنه جلب لهم الحظ طوال السنوات الماضية ، كما وعده أن يقدّم له بعض الهدايا بمجرد إطلاق سراحه . وافق نلز على العرض ، ثم طمع في المزيد ، فأسقطه ثانية في الشبكة ، وسرعان ما حدث تحوّل غامض ، إذ اختفى القزم ، وأصبح نلز عقلة إصبع.

بدءًا من تلك اللحظة ، يخرج نلز ليواجه العالم الخارجي بشكله الجديد الضعيف ، فإذا بالإوَز والدجاج ترفض أن تساعده ؛ لأنه سبق أن نتف ريشها ، وحتى القطة أيضًا رفضت أن تمدّ له يد العون ؛ لأنه كثيرا ما جذب ذيلها ، وكذلك فعلت الأبقار .

وفي الفناء رأى طيور الإوَزّ البرّي المهاجرة تعبر السماء فوقه ، وتدعو الإوز الداجن للاشتراك معها ، وسرعان ما استجاب ذكر الإوز البري للإغراء ، وطار ليلحق بها ، فإذا به يسقط سريعا ؛ لأنه لم يعتد الطيران ، وحين حاول ثانية مستفيدًا من خطئه جرى نلز وتعلق برقبته ليمنعه من الطيران حتى لا يخسره أبواه ، لكنه ارتفع إلى السماء ، وصعد نلز إلى ظهره وحفر له مستقرًّا آمنًا وسط الريش بين جناحيه ؛ حتى لا يسقط على الأرض .

هكذا بدأت علاقتهما ، التي صاحب فيها نلز بحجمه الضئيل وعقله البشري ذكر الإوز في رحلاته مع طيور الإوز البرية خلال رحلة هجرته السنوية ، ومن ثم اندرج في مغامرات امتدت خلال أرجاء السويد برًّا وبحرًا ، دفاعًا عن النبات والطيور والحيوان ، اكتسب خلالها بشكل غير مباشر معارف عديدة حول تضاريس ومعالم الأرض ، وسمع كثيرا من حكايات وأساطير تلك المناطق ، واكتسب خبرة كبيرة حول تلك العوالم المختلفة .

من تلك الحكايات والأساطير ، التي تناثرت في الرواية ، حكاية الفئران السوداء والفئران الرمادية . كانت الفئران السوداء «**تسكن قلعة جليمنج .. فالحيوانات تذكر اسمها دائما مقرونًا بعلامات التوقير والإجلال ؛ لأنها كشفت عن بسالة منقطعة النظير في معركتها مع أعدائها .. وأبدت تحمّلا إزاء المصائب والكوارث الكبرى التي ابتليت بها . وتنتسب الفئران السوداء إلى قبيلة كانت يوما ما كثيرة العدد ،**

قوية البأس، عزيزة السلطة، ولكن زال كل هذا المجد وانتهى»، بسبب الفئران الرمادية التي جاءت من سلالة زوج من الفئران المسكينة المهاجرة التي هبطت إلى الأرض من مركب شراعي، وسرعان ما تكاثر عددها، وازدادت جرأتها، **«وقد يستحيل علينا أن نفهم لماذا لم تنظم الفئران السوداء نفسها، وتشكل من شعبها جيشًا جرارًا موحدًا لاستئصال الفئران الرمادية عندما كانت لا تزال جماعات صغيرة العدد؟! بيد أن الفئران السوداء أخذها الغرور، واطمأنت إلى قوتها، وقنعت بخيالاتها، وقعدت جامدة، حتى ازداد عدد الفئران الرمادية، وقويت شوكتها، وانتزعت منها الأرض؛ مزرعة بعد مزرعة، ومدينة بعد أخرى»**.

انظر وتعجب، ألا تذكرنا هذه الحكاية، التي أبدعتها الكاتبة سلمى لاجرلوف عام 1907، بحكايتنا نحن العرب مع إسرائيل؟! وكأنها كانت تتنبأ بما سيحدث على أرض فلسطين بعد ذلك بأربعين عامًا.

ومن الحكايات الأخرى الجميلة، هذه الحكاية التي حكيت لنلز: **«يُحْكَى أنه كان في هذا المكان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، مدينة على هذا الشاطئ اسمها فبنيا. كانت مدينة شديدة الثراء، شديدة البذخ والترف، ولم تُعْرَف مدينة أخرى تدانيها غنى، وتضارعها مجدًا وفخامة. ولكن لسوء الحظ أسلم أهلها أنفسهم للترف والغطرسة وحب اللهو والتظاهر»**، ثم استطرد الراوي **«وقال**

لي الغراب باتاكي إن المدينة نالت عقابها جزاء ذلـك ، إذ فـاض البحـر وطغـى ، فـابتلع المدينـة ، وغاصـت إلى الأعـماق .. إلاّ أن الـسكان لم يموتوا ، والمدينة لم تدمر ، ففي ليلة من كل مائة عـام تطفـو المدينـة إلى السطح بكل روعتها وجمالها وزينتها .. وتظـل كـذلك سـاعة واحـدة فقط» .

في هذه الحكاية خيال بديع ، وعظة خفية ، وقيم نبيلـة تحـضّ عـلى التواضع والاجتهاد واحترام الآخرين.

وهذه حكاية ثالثة تتعلق بالفلاح السويدي ، الذي سأل عرّافة عن مستقبل السويد ، فأجابته : «إنّ كل بقعة في بلدك تضمّ آثارًا تشهد على عظمتها ومجدها . وتملك من عناصر الفن والجـمال مـا يتحـدث عنهـا الركبان» ، فردّ عليها بأنّه «يخشى أن يأتي زمـان ينكـر فيـه النـاس هـذا المجد الغابر أو يقصر عن الإضافة والتجديد » . وكان كلـما عـدَّت لـه تطويرًا ، كرّر أمامها نفس التخوّف ، حتى أجابتـه في النهايـة ، قائلـة : «لا تحمل همًّا . ولا تشغل البـال بهـذا مـا دام النـاس يعملـون في دأب فلا خوف ، ولا داعي للقلق .. العمل وحده هو الذي يجلب الثناء على كل لسان» .

رواية الكنز :

صـدرت روايـة «الكنـز» عـام 1904 ، وسرعـان مـا تحوّلـت إلى فـيلم سينمائي ناجح ، بعنوان «كنز سير آرن» للمخرج النمساوي موريتز ستيلر.

هذه رواية جميلة تنقل القراء إلى عالم عجائبي، يتجاور فيه الواقع البشري وما وراء الواقع.

يتجلى الواقع في الرواية بكل ما يجيش به من خير وشر، فهناك شخصيات نبيلة طيبة متواضعة تجتهد بحثا عن لقمة حلال كبائع السمك الجوال "تورارين"، وهناك الكاهن المتواضع المؤمن الذي يبسط حمايته على من حوله ويتبنى فتاة يتيمة هي "الزاليل" لتكون رفيقة درب ابنة أخته التي كانت في نفس عمرها، وهناك زوجة الكاهن المخلصة في أداء عملها وبسط رعايتها على دار الكاهن وكل من يتواجد بها. أما جانب الشر فيظهر من خلال ثلاثة أفراد من الأسكتلنديين وصلوا إلى منطقة بلوستان ، التي تعتبر الآن إحدى محافظات جنوب السويد، فرارا من حبسهم في أسكتلندا، فكان نهمهم إلى المال والسلطة وراء إقبالهم على ارتكاب مذبحة أثناء سرقة كاهن المنطقة.

أما جانب ما وراء الواقع، فقد تجلى أولا في زوجة الكاهن عندما استبصرت خطر العدوان عليهم حين رأت عناصر الشر وهي تعد عدتها للهجوم عليهم ، لكن زوجها لم يصدق نبوءتها إلا عندما وقعت الواقعة. كما بزغت أشباح الموتى من بين الظلال، حين رأى «تورارين» الكاهن وهو يكلف ابنة أخته بمهمة البحث عن القتلة حتى ينالوا جزاء جرمهم. وهكذا رجعت ابنة أخت الكاهن الراحلة إلى أرض الواقع لكي تذكّر القاتل بجريمته حتى لا يهنأ بلحظة راحة

أو سلام، وقد يرتفع بكاؤها تارة إلى جوار «الزاليل» بشكل يقطع نياط القلوب حتى تقنعها بالتعاون معها، وقد يتناثر دم قدميها الحافيتين على الأرض، وهي تمضي هائمة دائما وأبدا إلى أن يتم القبض على القتلة لتسكن في قبرها ويحلّ عليها السلام. هناك أيضا كلب تورارين وصديقه الصدوق الذي يستشعر الشر بتلقائية. بل إن الطبيعة ذاتها تشارك في مطاردة القتلة من خلال حصار الجليد للسفينة التي حجز القتلة للسفر عليها إلى أسكتلندا.

كما تتضمن الرواية علاقة حبّ بين «الزاليل» وسير «آرشي»، الثري الأسكتلندي. وبينما تتصاعد العلاقة وتتوطد تطارد روح القتيلة، أخت «الزاليل» بالتربية السير «آرشي» لتشعره بحقيقته كقاتل، ولتثبت لـ «الزاليل» من ناحية أخرى، حقيقة جرمه مع رفيقيه، فينشأ صراع رهيب في نفس «الزاليل» بين ولائها لحبيبها الذي يعدها بحياة رغدة في قصور أسكتلندا بعد رحيلهما معا، وبين ولائها لأختها بالتربية التي تطلب الثأر من قتلتها حتى ترتاح وتنعم روحها بالسلام في قبرها. وسرعان ما يحسم هذا الصراع في النهاية خاصة بعد أن أثبتت لها أختها بالتربية مشاركة حبيبها في الجريمة، فأقدمت على الإبلاغ عنه، بل إنها ضحّت بحياتها على مذبح حبّها خلال رحلة هرب محبوبها، بعد أن صنع منها درعا يحميه من هجوم الحرّاس الذين يسعون للقبض عليه.

وتعلي الرواية بهذا الشكل من شأن المرأة، وقد كانت سلمى لاجرلوف طوال عمرها مناصرة شديدة البأس لقضايا المرأة. كما

تحضّ الرواية أيضا على التكاتف الأسري، والسعي نحو العدل، والإقبال على الحبّ المنزّه عن الغرض.

* * *

ألا ما أحوجنا في بلداننا العربية إلى مثل هذه المواهب الكبيرة ، التي تستوعب مخزون أمتنا من الحكايات والأساطير ، لتغترف بعضًا من زادها بعد أن تحتضنها في مخيلاتها الإبداعية ، حتى تنضج ويحين قطافها ، فإذا هي ثمار شهية تغذي عقول النشء وتسمو بمشاعرهم ، وتدفع بهم قدما ، للتعرّف على أوطانهم عن حب وإيمان ، كما تدعوهم في الوقت ذاته بشكل غير مباشر إلى بذل الجهد والعمل على رفعة شأن أمتنا ؛ لأن الفنّ الحق ينبع من الواقع ، وإلى أبنائه يعود رحيقًا عذبًا شهيًّا .

حسين عيد

(ديسمبر 2008)

الفصل الأول

في بيت الكاهن بـ «سولبرجا»

I :

في تلك الأيام، التي حكم فيها الملك «فردريك الثاني» بوسلين(*)، سكن هناك في «مارستران» بائع سمك متجوّل فقير، اسمه «تورارين». كانت حالة هذا الرجل غير مستقرّة ومتواضعة، فقد كانت له ذراع مشلولة، جعلته لا يصلح للعمل على زورق أو للتجديف. ولكونه لم يستطع أن يكسب رزقه من البحر مثل كل رجال «سكاريز» الآخرين، فقد راح يتجوّل بين الناس على البرّ، بائعًا أسماكًا مملحة ومجففة. لم تكن الأيام التي يقضيها في بيته كثيرة خلال العام، لأنّه كان على الطريق باستمرار متنقلا من قرية إلى أخرى بحمولته من الأسماك.

(*) حكم الملك «فردريك الثاني» في الفترة من 1544 إلى 1588. كانت «بوسلين» في ذلك الوقت تكوّن جزءًا من «النرويج» تحت حكم التاج الدانمركي، ولكنها الآن مقاطعة في جنوب غرب «السويد».



وفي يوم من شهر فبراير ، بينما كان الغسق يدنو ، ظهـر «تـورارين» وهو يقود زحافته عـلى امتـداد الطريـق ، الـذي يبـدأ مـن «كنجثـال» وينتهي إلى أبرشية «سولبرجا» . كان الطريق منعزلا ، مهجورًا كليّـة ، لكن ذلك لم يكن سببًا كافيًا لـ «تورارين» ليصمت .. جلس إلى جواره على الزحافة صديقه الصدوق ، الذي يتجاذب معه أطراف الحـديث ، كلب أسود بكساء جلديّ أشعث ، سمّاه «جريم» . يظلّ سـاكنا معظـم الوقت ، ورأسه غائص بين قدميه ، مجيبًا فقط بطرفة من عينيه على كل ما يقوله سيده . لكن إذا سمعت أذنـه مـا لا يـسرّه ، فإنـه سرعـان مـا ينتصب واقفا على الحمولة ، مادًّا أنفه في الهواء ، عاويًا أسوأ من ذئب .

قال «تورارين» :

«الآن لا بد من أن أخبرك ، يا كلبي ، جريم» .

ثـم استطرد ، قائلا :

«لقد سمعت اليوم أنباء عظيمة ، أخبروني بها في كلّ من «كنجثال» و «كاربي» ، وهي أن البحر قد تجمّد . وقد استمرّ هذا الطقس الواضح الهادئ لفترة طويلة ، كما تعرف ، لمن يخرج كلّ يوم ، ويقولون إن البحر قد تجمّد سريعا ، ليس فقط في الخلجان الصغيرة والمـضايق ، بـل امتـد بعيدًا إلى «كاتجات» ، حتـى لم يعـد هنـاك الآن أيّ ممـر مفتـوح للملاحـة سفينة أو قارب بين الجزر . لم يعد هناك سـوى جليـد ثابـت صـلـب ، لدرجة أنه يمكن لرجل أن يقود حصانا وزحافة إلى مسافة بعيدة ، بين «مارستراند» و «باترنوستر سكريز» .

أنصت الكلب لكلّ ذلك ، ولم يَبْدُ عليه الانزعاج . لكنه استمرّ راقدًا ، وطرف بعينه لـ «توrarين» ، الذي قال :

«لم يتبقَّ في حمولتنا مخزون كبير من السمك» .

واستطرد ، كما لو كان يحاول أن يقنعه بوجهة نظر :

«ما تعليقك ، إذا ابتعدنا عن مفترق الطرق التالي ، ومضينا قدمًا باتجاه الغرب ، حيث يوجد البحر؟ سنمرّ بجوار كنيسة «سولبرجا»، هابطين إلى «أوذرمالسكيل» ، وبعد ذلك سيكون باقيًا لنا سبعة أو ثمانية أميال إلى «مارستراند» .. سيكون أمرًا جميلا إذا أمكننا أن نصل فورًا إلى ملجأ دون الاعتماد على قارب أو معدية» .

استمرا في القيادة فوق امتداد مستنقع «كاربي» ، وعلى الرغم من أنّ الطقس كان طيّبًا طوال اليوم ، فإنّ هبّة نسيم باردة تثير المسافر ، جاءت منطلقة عبر المستنقع . قال «توراري» ، وهو يحرّك ذراعه كي يدفئه :

«ربّما يبدو من المريح أن نمضي الآن إلى البيت ، بينما التجارة في أفضل أحوالها» .

ثم استطرد :

«لقد ظللنا على الطريق لعدّة أسابيع ، وأصبح لدينا - أنا وأنت - مبرر كي نمكث في البيت يومًا أو يومين نطرد فيهما البرد من جسمينا».

استمرّ الكلب جاثيًا ، مادًّا قدميه أمامه.. بدا أنّ «تـورارين» يـزداد تأكّدًا من موقفه ، فاستمر بلهجة بهيجة :

«لقد تركنا الأم وحيدة في الكوخ خلال هذه الأيام ، لـذلك أجـدني متأكّدًا من أنّها متشوّقة لأن ترانا . «ستراند» مدينة جميلـة وقـت الـشتاء ، يـا جـريم ، فالـشوارع والممـرات ممتلئـة بـصيادين أجانـب وباعـة جـائلين . وسيكون هناك رقص على أرصفة تحميل السفن مـساء كـل يـوم مـن أيـام الأسـبوع ، وسـيتدفق شراب الجعـة في الحانـات! ذلـك أمـر لا يمكنـك تصوّره» .

انحنى «تورارين» فوق الكلب، بينما كان يقول ذلك كي يرى إذا ما كان ينصت لما كان يقول .

كان الكلب يرقد هناك يقظًا تمامًا دون أيّة إشارة إلى التذمّر ، عنـدما انحرف «تورارين» عند أول طريـق يقـود باتجـاه الغـرب إلى البحـر ، ضاربًا الحصان سريعًا بالجزء المتدلي من سير اللجام ، ليجعله يـسرع في خطوه.

قال «تورارين» :

«طالما أننا سنمر بجوار بيت الكاهن بـ «سولبرجا» ، فـإنني سـأتوقف هناك لأستفسر عمّا إذا ما كان حقيقيًّا أن الجليد سـيتحمّل المـسير إلى أبعـد حتى «مارستراند» ، وهو ما لا بد من أنّ الحضور هناك يعرفون حقيقته» .

قال «توزارين» تلك الكلمات بصوت منخفض ، دون أن يفكر فيما إذا كان الكلب ينصت أم لا . لكن ما إن لفظت تلك الكلمات بصعوبة ، إلّا وقد انتصب الكلب على الحمولة ، مطلقًا عويلا مروّعًا .

وثب الحصان جانبًا ، لدرجة أنّ «توزارين» نفسه كان مروّعًا ، وتطلّع حوله ليرى إذا ما كانت هناك ذئاب تطارده . لكن حين وجد أن جريم كان هو الذي يعوي ، حاول أن يهدئه .

سأله :

«والآن ، ما الأمر؟»

ثم استطرد :

«أنت وأنا نعرف ، كم هي عديدة المرات التي وصلنا فيها إلى فناء بيت الكاهن بـ «سولبرجا»! إنني لا أعرف ما إذا كان هرّ(*) آرن يمكنه أن يخبرنا عن ماهيّة الحال مع الجليد ، لكنني أؤكد أنه سيقدم لنا عشاء جيدًا قبل أن ننطلق في رحلتنا البحرية».

لكن كلماته لم تكن قادرة على أن تهدّئ من روع الكلب ، الذي رفع خطمه وعوى بشكل كئيب أكثر من أي وقت مضى .

إزاء ذلك لم يكن «توزارين» نفسه بعيدًا عن أن يراوده شعور غريب . كان الجوّ قد أظلم تقريبًا ، لكن «توزارين» أمكنه أن يرى

(*) في زمن الرواية كان لقب «هرّ» يماثل «سيدي» تقريبًا.

كنيسة «سولبرجا» والسهل الواسع من حولها ، الذي زوّدها بخمائل مرتفعة عريضة باتجاه الأرض ، إلى جوار صخور عارية مستديرة باتجاه البحر . وبينما كان يقود وحيدًا فوق السهل الأبيض الواسع ، شعر بأنّه دودة صغيرة بائسة ، بينما ظهرت أعداد كبيرة من الغابات المظلمة مع امتداد الجبال اللامتناهي ، التي كانت تتعاقب من كلّ نوع متجرّئة على البلد المفتوح عند سقوط الظلام . ولم يكن هناك أيّ فرد آخر يتقدّم على امتداد كلّ السهل العظيم خلاف المسكين «توراارين» .

لكنه حاول ، في الوقت نفسه ، أن يهدّئ الكلب مرّة أخرى قائلا :
«فلتسامحني ، ما هو خلافك مع هرّ «آرن»؟ إنّه أغنى رجل في البلدة ، وهو كريم المولد ، ولو لم يصبح قسًّا هناك ، لكان لوردًا عظيمًا».

لكن ذلك لم يكن نافعًا لجلب الهدوء للكلب . هكذا فقد «توراارين» صبره لدرجة أنه جذب جريم من مؤخرة رقبته ، وقذفه بعيدًا عن الزحافة .

لم يتبعه الكلب وهو يبتعد ، بل ظلّ منتصبًا على الطريق ، يعوي دون توقف ، حتى عبر توراارين القنطرة إلى فناء بيت الكاهن ، الذي كان محاطًا من جوانبه الأربعة بمبانٍ خشبية ذات ارتفاعات منخفضة .

II :

جلس القسّ الهرّ «آرن» على العشاء محاطًا بكلّ أهل بيته في «سولبرجا» .. لم يكن هناك من غريب سوى «توراارين» .

كان هرّ «آرن» عجوزًا أبيض الشعر ، لكنه ما زال قويًّا صلبًا . جلست زوجته إلى جواره . لم تكن السنين طيّبة معها ، فقد أصبح رأسها ويداها مرتعشين ، وكانت صمّاء تقريبًا .

جلس ، على الجانب الآخر لهرّ «آرن» ، مساعده . كان شابًّا شاحبًا ، تعلو وجهه نظرة قلقة ، كما لو كان غير قادر على أن يحتمل كلّ التعليم الذي حصّله خلال سنوات الدراسة في «ويتنبرج» .

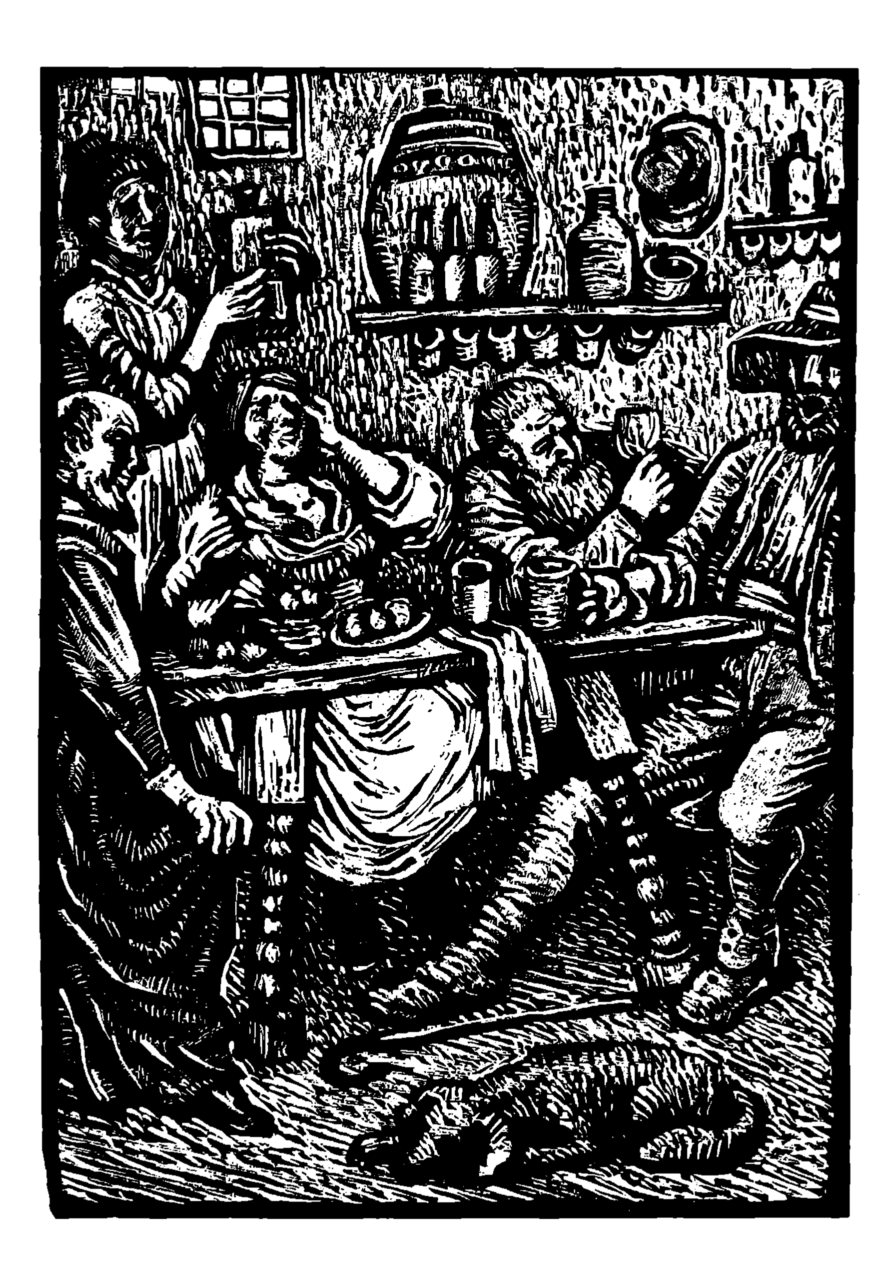
جلس هؤلاء الثلاثة على رأس المائدة ، بعيدًا قليلا عن بقية الحاضرين . جلس «توراربن» بعدهم ، وإلى جواره الخدم ، الذين كانوا عجائز مثل سيدهم . كان هناك ثلاثة من الخدم الرجال ، رؤوسهم حليقة ، وظهورهم محنية ، وعيونهم وامضة ومندّاة . لم يكن موجودًا من النساء سوى اثنتين ، كانتا أكثر شبابًا نوعًا ما ، وأقوى بنية من الرجال ، وإن كانت لهما نظرة ضعيفة ، بعد أن ابتليتا بأمراض العمر .

جلست فتاتان على الجانب الأبعد من المائدة . كانت إحداهما هي ابنة أخت هرّ «آرن» ، فتاة لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها ، جميلة الشعر ، رقيقة البنيان ، لم يصل وجهها بعد إلى كامل نضجه ، لكنها تمتلك على محيّاه جمالا واعدًا . كانت هناك فتاة صغيرة تجلس إلى جوارها ، يتيمة فقيرة دون أب أو أم ، منحت محلا للسكن في بيت الكاهن . جلست الاثنتان متقاربتين معًا على المقعد الطويل ، وكان يمكن ملاحظة أنّ هناك صداقة عميقة تربط بينهما .

جلس كلّ هـذا الجمـع أمـام الطعـام في صـمت عميـق . انتقلـت نظرات «تورارين» من فرد إلى آخر ، لكن لم يكن هنـاك مـن يميـل إلى الحديث أثناء تناول الطعام . فكّر كلّ الخدم العجـائز في أنفسـهم «إنّـه **لأمر حسن ، أن نمنح طعامًا ونتحرر من معاناة العوز والجوع ، اللذين عركناهما كثيرًا في حياتنـا . لـذلك ، بينـما نتنـاول طعامنـا ، ينبغـي أن لا نفكّر ، بل أن نتوجه بشكرنا إلى الله على جوده»** .

عندما لم يجد «تورارين» من يتحدث إليه ، راحـت نظراتـه العـابرة تتجوّل ببطء في أرجاء الغرفة . انتقلت عيناه من الفرن الكبيـر ، المبنـي من عدة طبقات إلى جوار بـاب المـدخل ، إلى السرير العـالي القـوائم ضئيل القيمة ، المقـام في ركـن الغرفـة البعيـد . وارتفعـت نظراتـه إلى الأرفف الثابتة ، التـي امتـدت حـول الغرفـة إلى فجـوة في الـسقف ، يتسرب منها الدخان ، ويدخل منها الهواء الشتوي .

بينما كان «تورارين» بائع السمك المتجوّل ، الذي يعـيش في أصـغر وأفقر كوخ في الجزر الصغيرة ، يتطلع إلى كلّ تلك الأشياء ، فكّـر «لـو **كنت شخصًا عظيمًا مثل هرّ «آرن» ، لما كنت راغبًا في أن أعيش في بيت الأسرة القديم ، المكوّن من غرفة واحدة ، بل كان ينبغي أن أبني لنفسي بيتًا مكوّنًا من عدّة طوابق عالية وعدّة غرف ، مثل بيـوت عمـد المـدن ونواب الملك الموجودة في «مارستراند » »** .



حلّ صمت شديد العمق على الغرفة ، حين سألت السيدة العجوز هذا السؤال ، وأجفل الجميع ، ورفعوا بصرهم إلى أعلى في خوف . وحين رأوا أنها تنصت إلى شيء ما ، حافظوا على ملاعقهم ساكنة ، وتوترت آذانهم .

كان هناك سكون تام في الغرفة لعدّة دقائق ، لكن حين استمر أصبحت السيدة العجوز قلقة أكثر وأكثر .. مدّت يدها إلى ذراع هرّ «آرن» سائلة إيّاه : «**كيف يحدث أن يشحذوا مثل هذه السكاكين الطويلة في «برانهوج» هذا المساء؟**» .

رأى «تورارين» هرّ «آرن» يلاطف يدها ليهدئها . لكن ربّما لم يكن يشغل باله أن يردّ عليها ، لأنّه استمر يتناول طعامه بهدوء كالسابق .

ما تزال السيدة العجوز جالسة تنصت . نضحت عيناها بالدموع من الرعب ، وارتعشت يداها ورأسها بشكل أكثر عنفًا .

عندئذ بدأت البنتان الصغيرتان ، اللتان جلستا عند حافة المائدة ، في البكاء من الخوف .

عادت السيدة العجوز تتساءل :

«**ألا تسمعهم وهم يحكّون ويبردون؟**» .

ثم استطردت :

«**ألا تسمعهم وهم يهسهسون ويحكّون بشدة؟**» .

ما زال هـرّ «آرن» جالـسًا ، يلاطـف يـد زوجتـه . وطالما اسـتمر صامتًا ، لم يكن أيّ فرد يجرؤ على النطق بكلمة .

لكن الجميع كانوا على قناعة من أن سيدتهم العجـوز قـد سـمعت شيئًا مروعًا ومنذرًا بالشر . شعر الجميع بالـدماء تتخثـر في عـروقهم . لم يضعْ أيّ فرد مـن الجالـسين إلى المائـدة قطعـة طعـام في فمـه ، عـدا العجوز «آرن» نفسه .

كانوا يفكرون في السيّدة العجـوز ، وكيـف تولّـت مـسئولية إدارة البيت لسنوات عديدة . لقد عاشت فيه دائما ، ورعت بحكمة وعنايـة فائقة الأطفال والخدم والسلع والماشية ، حتـى ازدهـر الجميـع . وقـد أرهقت الآن ، وابتليت بأمراض الشيخوخة ، لكنها لا تزال وحـدها ، ولا أحد غيرها ، يمكن أن يستشعر أيّ خطر قد يتهدد البيت .

تزايد خوف السيدة العجوز أكثـر وأكثـر . شـبكت يـديها بيـأس ، وبدأت تبكي بحرقة لدرجة أن دموعًا كبيرة انحـدرت عـلى وجنتيهـا المتقلصتين .

اشتكت العجوز :

«ألا يعنـي لـك شـيئا يـا «آرن آرنـسون» أننـي خائفـة عـلى نحـو موجع؟».

أحنى هرّ «آرن» رأسه إليها ، وقال :

«إنني لا أعرف ما يخيفك» .

ردت قائلة :

«إنني أخاف السكاكين الطويلة التي يشحذونها في «برانهوج»» .

تساءل هرّ «آرن» ، مبتسمًا :

«كيف يمكنك أن تسمعيهم وهم يشحذون السكاكين في «برانهوج»؟» .

ثم استطرد ، موضحًا :

«لأنّ «برانهوج» تقع على بعد ميلين من هنا . تناولي ملعقتك مرّة أخرى ، ودعينا ننهي عشاءنا» .

حاولت المرأة العجوز أن تتغلب على رعبها ، وتناولت ملعقتها وغرستها في إناء اللبن ، ولكنها وهي تفعل ذلك ارتعشت يدها، لدرجة أنّ الجميع أمكنهم أن يسمعوا قعقعة الملعقة أثناء اصطدامها بحافة الإناء .

فورًا ، نحّت الملعقة جانبًا ، وهي تقول :

«كيف أستطيع أن آكل؟ ألم أسمع عواء شحذ السكاكين ؟ ألم أسمع الحكّ الشديد؟» .

عندئذ أبعد هر «آرن» إناء اللبن بعيدًا عنه ، وشبك يديه . وفعل الجميع الأمر نفسه ، وبدأ مساعده يطلب الرحمة .

حين انتهت الطقـوس ، سـقطت نظـرات هـرّ «آرن» عـلى أولئـك الذين جلسوا على امتـداد المائـدة ، وحـين رأى أنهـم كـانوا شـاحبين وخائفين ، أصبح غاضبًا .

بـدأ يتحـدّث معهـم حـول تلـك الأيـام ، حـين جـاء حـديثًا إلى «بوسلين» ، ليتسلم أبرشية مذهب «لوثر» البروتستانتي .. ثم أجبر هو وخدمه على أن يهربوا من المذهب البابوي الكـاثوليكي، مثـل فـرائس يطاردها صياد .

«ألم نر أعداءنا وقد توقفوا لانتظارنا ، بينما كنّـا في طريقنـا إلى بيـت الله؟ ألم نطرد من بيت الله ؟ ألم نلجأ إلى الغابـات مثـل الخـارجين عـلى القانون؟ هل كان من اللائق أن نلعب دور الجبـان ونـسلم أنفـسنا إلى الضياع بسبب نذير شر؟».

بدا هرّ «آرن» ، وهو يقول ذلك مثل بطل شجاع ، واسـتحوذ عـلى قلوب الآخرين مجددًا عند سماعه .

«آه ، ذلك صحيح» فكّروا . «لقد حمـى الله هـرّ «آرن» مـن أخطـار أعظم.. إنه يبسط عليه يده ، ولن يدع خادمه يهلك» .

III :

بمجرد أن انطلق «توrارين» على الطريق ، ظهر كلبه جـريم ، واثبًـا إلى الحمولة .. حين رأى «توراربن» الكلب ، الذي كان ينتظـر خـارج بيت الكاهن عاوده القلق ثانية ، وقال للكلب :

«ما الأمر يا جريم؟ لماذا مكثت خارج البوابة طوال المساء؟ لماذا لم تدخل إلى البيت لتتناول عشاءك؟» .

ثم استطرد :

«هل يمكن أن يكون هناك أيّ خطر يتهدد هرّ «آرن»؟ ربّما أكون قد رأيته للمرّة الأخيرة . لكن حتى بالنسبة إلى رجل قوي مثله يقترب من التسعين ، لا بد من أن يدركه الموت يومًا» .

أرشد «تورارين» حصانه إلى الطريق ، الذي يمضي عبر مزرعة «برانهوج» إلى «أودمالسيكل» .

حين وصل «تورارين» إلى «برانهوج» ، رأى زحافات واقفة هناك في فناء المزرعة ، والأضواء تنبعث عبر شقوق المصاريع المغلقة . عندئذ قال لجريم : **«هذه الجموع ما تزال ساهرة . سأدخل وأسأل إذا ما كانوا قد شحذوا سكاكين هنا ، في هذه الليلة»** .

التجأ إلى فناء المزرعة ، لكن حين فتح باب البيت ، رأى أنّ هناك احتفالا يجري . جلس رجال عجائز على المقاعد بجوار الحائط ، يحتسون نوعًا من الخمور يسمى «المِزْر» . وفي منتصف الغرفة ، كان الشباب يرقص ويغني .

أيقن «تورارين» فورًا ، بأنّه لا يمكن أن يوجد هنا أيّ فرد فكّر في جعل سلاحه جاهزًا لفعل دموي ، فصفق الباب مرة أخرى ، ليمضي في طريقه ، لكن المضيف سرعان ما جاء وراءه ، وطلب منه البقاء طالما أنّه قد جاء ، وقاده إلى داخل الغرفة .

جلس «تورارين» لفترة طيبة ممتعًا نفسه، ومتجاذبًا أطراف الحديث مع الفلاحين، الذين كانوا يتمتعون بحسّ عالٍ للفكاهة المرحة، وكان «تورارين» سعيدًا بأن يتخلص من كلّ الأفكار المتشائمة.

لكن في ذلك المساء، لم يكن «تورارين» هو الوافد المتأخّر الوحيد إلى الحفل، إذ بعد مدّة من وصوله، دخل رجل وامرأة من الباب. كانا يرتديان ملابس فقيرة، وتريّثا خجلين في الركن بين الباب والمدفأة. تقدّم المضيف فورًا باتجاه ضيفيه. تناول يد كلّ منهما، وقادهما إلى داخل الغرفة.. ثم قال للآخرين:

«أليس صحيحًا ما قيل من أنّه كلما قصر الطريق كلما ازداد التأخير؟ إنّهما أقرب جيراننا. ليس في «برانهوج» مستأجرين آخرين بخلافهما بالإضافة إليّ».

ردّ الرجل:

«الأحرى بك أن تقول إنه ليس هناك سواي».

ثم استطرد:

«لا يمكن أن تعتبرني مستأجرًا، فأنا مجرد حارق فحم نباتي، سمحت له أن يستقرّ على أرضك».

اختار الرجـل أن يجلـس إلى جـوار «تـورارين» ، وبـدآ يتحـدثان . أخبر الوافد الجديد «تورارين» أن الـسبب في تـأخّر قدومـه إلى الحفـل يرجع إلى أن ثلاثة غرباء زاروهما في كـوخهما ، وأجبروهمـا عـلى عـدم المغادرة ، ثلاثة رحّالة من دبّاغي الجلود ، ظلـوا معهـما طـوال اليـوم . حين وصلوا في الصباح ، كانوا مرهقين متـوعكين ، وقـالوا إنهـم قـد ضلّوا طريقهم في الغابة ، وتاهوا خلالها لمدة أسبوع كامل . لكـن بعـد أن أكلوا وناموا ، سرعان مـا اسـتردّوا عـافيتهم ، وحـين حـلّ المـساء استفسروا عن المنزل الأعظم والأكثر ثراء في المنطقة ، حتى يمضوا إليه باحثين عـن عمـل ، وأجابـت زوجتـي بـأنّ أفـضل مكـان هـو بيـت الكاهن ، حيث يسكن هرّ «آرن » .. عندئذ أخرجوا سـكاكين طويلـة من أمتعتهم ، وبدءوا يشحذونها، واستمروا في عملهم لفترة ، مع تلك النظرات الضارية ، التي أجـبرت حـارق الفحـم وزوجـه عـلى عـدم مغادرة بيتهما .

قال الرجل :

«إنني ما أزال أراهم جالسين ، وهم يشحذون سكاكينهم» .

ثم استطرد :

«كم بدوا مرعبين بلحاهم العظيمة ، التي لم تصقل أو طالت كثـيرا حتى ذلك اليوم . وكانوا يكتسون بمعاطف خـشنة مـن الجلـد ، باليـة وملوّثة . فكرت أن لدينا ثلاثة مستذئبين في البيت ، وكنت سعيدًا حين غادروا أخيرًا» .

حين سمع «توررارين» ذلك ، أخبر حارق الفحم بـما شـهده بنفسه في بيت الكاهن .

قال «توررارين» ضاحكًا :

«وإذن ، فقد كان الأمر صحيحًا تمامًا بـأنهم قـد شـحذوا سـكاكين هذه الليلة في« برانهوج»» .

كان قد سكر بشدة ، بسبب الأسى والثقل ، اللذين كانـا يـضغطان عليه حين جاء باحثًا عن إراحة نفسه بأفضل ما يستطيع . قال :

«لقد أصبحت الآن متهللا ، مرة أخرى» .

ثم استمرّ يقول :

«طالما أنني تأكدت تمامًا ، من أنّه ليس هناك نـذير شرّ فـيما سـمعته زوجة الكاهن ، بل يرجع الأمر فقـط إلى أنّ هـؤلاء الـدبّاغين ، كـانوا يجعلون عدّتهم جاهزة» .

IV :

بعد منتصف الليل بمدّة طويلـة ، خـرج شخـصان مـن البيـت في «برانهوج» ، كي يطعما حصانيهما ويعودا إلى البيت .

حين وصلا إلى الفناء ، شاهدا نارًا عظيمة تندلع إلى الـسماء بناحيـة الشمال .. أسرعا بالعودة ثانية إلى البيت ، صارخين :

«تعالوا ! تعالوا ! إن بيت الكاهن بـ «سولبرجا» يحترق!» .

كان هناك عديد من البشر في الحفل ، ومن يمتلك حصانًا سرعان ما امتطى ظهره مسرعًا إلى بيت الكاهن ، أمّا بقيّة أولئك الحاضرين فقد كان عليهم أن يهرولوا بأنفسهم .

حين وصل الناس إلى بيت الكاهن لم يروا أحدًا ، ولم تكن هناك أيّة إشارة تنبئ عن حركة . بدا المكان ساكنًا على الرغم من ارتفاع اللهب عاليًا في الهواء .

لم يكن أيّ من المنازل يحترق ، بل كان ما يحترق كومة كبيرة من خشب وحزم قش كانت قد جمعت أمام حائط المبنى القديم . لم يستمر الاحتراق طويلا . ولم يسفر اللهب إلاّ عن أن يسودّ خشب الحائط البادي ، وأذاب الجليد عن السطح المسقوف من القش . لكن كان ينبغي عليهم الآن ، أن يولوا عنايتهم إلى قشّ السقف .

أيقن الجميع فورًا أنّ هذا إحراق متعمّد ، وبدءوا يتساءلون فيما لو كان هرّ «آرن» وزوجته نائمين فعلا ، أم أنّ فعلا شريرًا قد أصابهما .

ولكن قبل أن يدخل المنقذون المبنى ، أخذوا قائمتين طويلتين وسحبوا الحزم المحترقة من الحائط ، وتسلقوا إلى السطح كي يزيلوا القشّ ، الذي ينبعث منه الدخان ، كأنّه على وشك أن يلتقط النار .

عندئذ ، ذهب بعض الرجال إلى باب البيت ليدخلوا ، وهم ينادون هرّ «آرن» ، لكن حين وصل أول رجل منهم إلى العتبة ، تنحى جانبًا وفتح الطريق للقادم من بعده . تقدم الثاني خطوة إلى الأمام ، لكن بينما

كان على وشـك أن يمسك بمقبض البـاب ، تنحـى جانبًـا مفـسحًا الطريق للقادمين من ورائه .

بدا من المروّع أن يفتح ذلك الباب ، لأنّ تيـارًا واضـحًا مـن دمـاء سال فوق العتبة ، وكان المقبض ملوثًا بالدم أيضًا .

ثم انفتح الباب أمام وجوههم ، وتبدّى للعيان مساعد هـرّ «آرن» ، مترنّحًا باتجاه الرجال بجرح عميق في رأسه ، كما كان مشبّعًا بالـدماء . استقام جسمه لوهلة ، ورفع يده كـي يـأمر بالـصمت . هكـذا تكلـم ولغط الموت في صوته :

«قتل هذه الليلة هرّ «آرن» وكـلّ أهـل بيتـه بواسـطة ثلاثـة رجـال تسللوا هابطين عبر مدخنة السطح ، وكانوا يكتسون بجلـود خـشنة . لقد هجموا علينا مثل وحوش مفترسة وذبحونا» .

لم ينطـق الرجـل بـأيّ شيء آخـر ، وسـقط ميّتًـا عـلى الأرض بـين الأقدام. وحين دخلوا إلى الحجرة ، وجدوا أنّ كلّ شيء تمامًا كـما ذكـر مساعد الأبرشية . كما لاحظوا اختفاء الصندوق الخشبي ، الـذي كـان هرّ «آرن» يحتفظ فيه بأمواله ، واكتشفوا ، في الوقت نفسه ، أنهم سرقوا أيضًا حصانًا من الإسطبل وزحّافة من السقيفة .

كان تتبع آثار الزحافة من الفناء يقود إلى سهول أرضية تنحدر نحو البحر .. وانطلق عشرون رجلا كي يعتقلوا القتلة . لكن النـساء هيـأن

أنفسهن كي يكفنّ الموتى ، ويحملنهم من الغرفة الدامية إلى الخارج حيث الجليد النقي .

لم يمكن الاستدلال على كل أهل بيت هرّ «آرن» ، فقد كانت هناك شخصية مفقودة .. كانت هي البنت الصغيرة ، التي آواها في بيته . كانت هناك تساؤلات كثيرة فيما إذا كان قد أمكنها أن تهرب بالصدفة ، أم أنّ اللصوص قد أخذوها معهم .

لكن حين بحثوا بعناية عبر الغرفة ، وجدوها مختبئة بعيدًا بين الموقد الضخم والحائط . وقد أبقت نفسها مختفية هناك خلال القتال ، لذلك لم تصب بأيّ ضرر على الإطلاق ، لكنها كانت عليلة من الرعب لدرجة أنها لم تستطع أن تتكلم ، أو تجيب عن أيّ سؤال

الفصل الثاني

على أرصفة الميناء

انتقلت البنت المسكينة ، التي هربت من المجزرة ، بواسطة «توراربن» إلى «مارستراند» . كانت قد تملكته شفقة شديدة عليها ، لدرجة أنّه عرض عليها الإقامة في كوخه الضيق ، وأن تشاركه الطعام ، الذي كان يتناوله مع أمّه .

فكر «توراربن» : **«ذلك هو الشيء الوحيد ، الذي يمكنني القيام به من أجل هرّ «آرن» ، مقابل كل المرّات التي اشترى فيها سمكي وسمح لي بالجلوس إلى مائدته » . ثم انتقل تفكيره إليها «إنها فقيرة ومتواضعة مثلي . من الأفضل للبنت أن تذهب معي إلى المدينة من أن تبقى بين جمهور الريف ، فهناك في «مارستراند» كثير من المواطنين الأثرياء ، ربما تلتحق البنت الصغيرة بخدمة أحدهم ، وهكذا يعتني بها جيدًا»** .

حين جاءت الفتاة إلى المدينة للمرّة الأولى ، جلست وبكت منذ الصباح حتى الليل . ندبت هرّ «آرن» وأهل بيته وانتحبت عليهم ، لأنها فقدت بهم كلّ عزيز لديها . والأهم من كلّ ذلك ، أنها بكت من

أجل الأخت «فوستر» ، وقالت إنها تتمنى لو أنها لم تخـفِ نفـسها وراء الحائط ، إذ ربّما كانت قد شاركتها الموت .

لم تعلق أم «توررارين» بشيء على ما حدث خلال فترة وجـود ابنهـا في البيت . لكن حين عاود سفراته ثانية ، قالت للفتاة ذات صباح :

«إنني لست غنيّة بما فيه الكفاية ، يا «الزاليل» ، كي أمنحـك طعامًـا وثيابًا وأنت جالسة متعطلـة تنعـين حزنـك . تعـالي معـي إلى أرصـفة الميناء، كي تتعلمي تنظيف السمك» .

هكذا ذهبت «الزاليل» إلى أرصـفة المينـاء ، ووقفـت طـوال اليـوم تعمل وسط الأخريات من منظفي السمك . لكن معظم النساء اللائي يعملن على أرصفة الميناء كنّ شابات مبتهجـات . بـدأن الحـديث مـع «الزاليل» ، وسألنها عن السبب في أنها شديدة الصمت والحزن ، فبدأت «الزاليل» تحكي لهن عن الأمر المرعب، الذي حدث لها منذ ثلاث ليـال تقريبا . حكت عن اللصوص الثلاثة ، الذين اقتحموا البيت مـن فتحـة المدخنة بالسطح ، وقتلوا كلّ من كان قريبًا وعزيزًا لديها .

بينما كانت «الزاليل» تحكي حكايتها ، سقط ظلّ أسود عـلى المائـدة التي تعمل عليها ، وحين رفعت بصرها رأت ثلاثة رجـال نـبلاء ذوي طلعات وسيمة واقفين أمامها ، يرتدون قبعات عريضة بـريش طيـور طويل ، وملابس من المخمـل ، ذات أجـزاء منتفخـة وافـرة ، مطـرّزة بالحرير والذهب .



بدا أنّ أحدهم أعلى مرتبة من الآخرين .. كان حليق الذقن ، شاحب الوجه ، وقد غوّرت عيناه عميقًا في رأسه . كان يبدو كما لو كان قد مرض حديثًا . ما عدا ذلك ، بدا فارسًا شابًّا مقتحمًا ، يتجوّل بين أرصفة الميناء المشمسة لاستعراض ملابسه الجميلة ووجهه الوسيم.

توقفت «الزاليل» فجأة عن إكمال عملها وإتمام حكايتها .. راحت تتطلع إليه بفم مفتوح وعينين محملقتين ، بينما ابتسم لها ، قائلا :

«نحن لم نأتِ إلى هنا كي نخيفك ، سيدتي ، بل نرجوك أن تستمري حتى ننصت نحن أيضًا إلى حكايتك» .

يا لـ «الزاليل» المسكينة! لم يسبق لها في حياتها أن رأت مثل هذا الرجل ، لذا شعرت بأنها لا تستطيع أن تتحدث في حضرته ، فحافظت في النهاية على سكونها ، ورجعت ببصرها ثانية إلى عملها .

رجع الغريب يقول ، مرّة أخرى :

«لا تخافي منا ، سيدتي ، نحن أسكتلنديون ، كنّا في خدمة «جون» ملك «السويد» لعشر سنوات كاملة ، لكننا أعفينا الآن من الخدمة ، وأصبحنا رهن العودة إلى الوطن . وقد جئنا إلى «مارستراند» ، كي نجد سفينة تقلّنا إلى «أسكتلندا» ، لكن حين وصلنا إلى هنا ، وجدنا أنّ كل قناة أو لسان يجري قد تجمّد تمامًا ، وهو ما حتّم علينا البقاء والانتظار . ليست هناك أعمال تشغلنا الآن ، ولذلك نتجوّل بين أرصفة الميناء كي نقابل من نرغب . وسنكون سعداء ، سيدتي ، إذا سمحت لنا بأن نسمع حكايتك» .

فهمت «الزاليل» أنه قد تحدّث طويلا هكذا حتى يتيح لها أن تسترد رباطة جأشها . وأخيرًا ، فكّرت في نفسها **«يمكنك بالتأكيد ، يا «الزاليل» ، أن تظهري أنّه ليس من المألوف الحديث مع رجل نبيل! لأنك فتاة ذات أصل طيب ، ولست حبيبة صياد»** .

قالت :

«كنت فقط أحكي عن المجزرة الفظيعة التي وقعت في بيت الكاهن بـ «سولبرجا» .. وهناك عديد ممن سمعوا تلك الحكاية» .

ردّ الغريب :

«نعم ، لكنني لم أكن أعلم حتى الآن أن أحدًا من أهل بيت هرّ «آرن» قد هرب حيًّا» .

هكذا ، حكت «الزاليل» مرة أخرى ما قام به اللصوص من فعل وحشي .. حكت كيف تجمع الخدم كبار السن حول هرّ «آرن» كي يحموه، وكيف أنه انتزع بنفسه حسامه المعلق على الحائط وهاجم اللصوص ، لكنهم سرعان ما تغلبوا عليهم جميعا . ثم تناولت السيدة العجوز سيف زوجها وهاجمت اللصوص ، لكنهم سخروا منها في النهاية ، وأسقطوها أرضًا بقطعة من خشب ، بينما ربضت بقية النسوة الأخريات أمام حائط الموقد ، لكن بعد أن مات الرجال ، جاء اللصوص وتغلبوا عليهن ، وذبحوهن .

استطردت «الزاليل» :

«كان آخر من ذبحوه ، هي عزيزتي الأخت فوستر ، لقد رجتهم أن يرحموا حياتها بشكل مثير للشفقة ، حتى كاد اثنان منهم أن يتركوها حيّة ، لولا أن أعلن ثالثهم أنّ الجميع يجب أن يموتوا ، وطعنها بسكينه في قلبها» .

حين كانت «الزاليل» تحكي عن القتل والدمّ ، وقف الرجال الثلاثة أمامها . لم يتبادلوا أيّ نظرات فيما بينهم ، لكن آذانهم استطالت وهي تنصت ، وومضت عيونهم وهي تنظر ، وأحيانًا كانت شفاههم تنفرج فتتلألأ أسنانهم .

كانت عينا «الزاليل» مليئتين بالدموع ، لكنها لم ترفع عينيها للحظة أثناء حديثها . لم تر أنّ الرجل ، الذي كان أمامها ، كانت له عينا وأسنان ذئب . فقط حين انتهت من الحديث ، جففت عينها وتطلعت إليه . لكن حين قابل نظرة «الزاليل» ، تغيّر وجهه في لحظة ، وقال :

«طالما أنك شاهدت القتلة جيدًا ، سيدتي ، فلعلك ستعرفينهم دون شك إذا قابلتِهم مرة أخرى؟» .

أجابت «الزاليل» :

«إنني لم أرهم سوى على ضوء السيوف التي انتزعوها من مثواها كي تضيء جريمتهم . لكن بمساعدة من الله ، سأعرفهم ثانية بالتأكيد، وإنني أصلي إلى الله يوميًّا أن أقابلهم» .

فتساءل الغريب :

«ماذا تعنين بذلك سيدتي؟ أليس صحيحًا أن أولئك القتلة المتشردين كان مآلهم الموت؟».

قالت «الزاليل» :

«حسنا، لقد سمعت بذلك فعلا، لأنّ الفلاحين الذين انطلقوا لمطاردتهم متتبعين آثارهم من بيت الراهب إلى حفرة في الجليد، رأوا عند تلك الحفرة البعيدة آثار حركة زحافة على الجليد الناعم، وآثار حوافر حصان، وآثار رجال بأحذية ثقيلة ذات رقبة. ولم تكن هناك أيّ آثار عبر الجليد بعد الحفرة، لذلك افترض الفلاحون أنهم ماتوا جميعًا».

عاد الغريب يسأل :

«وأنت ألا تعتقدين أنهم ماتوا، يا «الزاليل»؟».

أجابت :

«أوه، نعم، أعتقد أنهم يجب أن يكونوا قد غرقوا، لكنني ما زلت أضرع إلى الله يوميًّا أن يكونوا قد هربوا. إنني أناشد الله بهذه الكلمات: أرجو أن يكونوا قد قادوا الحصان والزحافة فقط إلى الحفرة، لكنهم هربوا بأنفسهم».

تساءل الغريب :

«لماذا تتمنين ذلك، يا «الزاليل»؟».

تراجعت رأس البنت الرقيقة باندفاع ، وتوهّجت عيناها كالنار :

«أتمنى لو كانوا أحياء حتى أكتشفهم ، وأقبض عليهم بنفسي . أتمنى لو كانوا أحياء ، حتى أنتزع قلوبهم . أتمنى لو كانوا أحياء ، حتى أرى أجسامهم وقد جمعت وثبتت بمسامير في عجلة ليتعذبوا» .

تساءل الغريب ثانية :

«كيف تفكرين بحدوث كل هذا ، وأنت مجرّد فتاة صغيرة ضعيفة؟» .

أجابت «الزاليل» :

«إذا كانوا أحياء ، فسأوقع العقاب بهم بالتأكيد ، فالأفضل أن أمضي إلى حتفي من أن أدعهم أحرارًا . قد يكونون أقوياء وجبابرة ، كما أعرف ، لكنهم لن يكونوا قادرين على الهرب مني» .

عندئذ ابتسم لها الغريب ، ولكن «الزاليل» اختتمت كلمتها ، قائلة :

«إذا كانوا أحياء ، ألا ينبغي أن أتذكّر أنهم انتزعوا مني بيتي ، حتى أصبحت الآن مجرّد فتاة فقيرة مجبرة على الوقوف هنا على هذا الرصيف البارد ، أنظف سمكًا؟ ألا ينبغي أن أتذكّر أنهم اغتالوا كل أولئك القريبين إليّ ؟ والأهم من كلّ ذلك ، ألا ينبغي أن أتذكر الرجل الذي اقتلع بقسوة الأخت «فوستر» من الحائط وذبحها ، وهي العزيزة عليّ جدًّا؟» .



لكن حين لم تقدّم الخادمة الرقيقة الصغيرة ما يؤيّد ذلك الغضب العارم ، انفجر الرفقاء الأسكتلنديون الثلاثة ضاحكين . وابتعدوا ممتلئين مرحًا ، خشية أن تعتبر «الزاليل» فعلهم إساءة إليها .. عبروا الميناء، ومضوا نحو الممشى الضيق ، الذي يقود إلى موضع السوق ، لكن بعد ذلك بوقت طويل ، وعندما كانوا بعيدًا عن نظر «الزاليل» ، سمع زئير ضحكهم الهازئ عاليًا .

الفصل الثالث

الرســول

دفن هرّ «آرن» في كنيسة «سولبرجا» بعـد أسـبوع مـن موتـه ، وفي اليوم نفسه فتح تحقيق عن الجريمة ، وعقدت جلسة في دار القضاء .

ما إن انتشر خبر موت هرّ «آرن» في كلّ مكان من «بوسلين» ، حتى تقاطر الحضور إلى جنازته ، سواء من الـبر أو مـن الجـزر ، كـما لـو أن جيشا قد تجمّع حول قائده . وهكذا تحرّك جيش جرار من البشر مـن كنيسة «سولبرجا» إلى «برانهوج» ، لدرجة أنّه مع حلول المساء، لم يكن ممكنًا أن ترى بوصة واحدة من الجليد لم تطأها أقدام البشر .

لكن متأخرًا في المساء ، بعد أن تفرّق الحشد ، جاء «تورارين» بـائع السمك المتجوّل قائدًا زحافته على طـول الطريـق مـن «برانهـوج» إلى «سولبرجا» .

كان «توراريـن» قد تحدّث مع كثـير مـن الرجـال عـلى مـدار ذلـك اليوم ، وحكى مرارًا وتكرارًا قـصة مـوت هـرّ «آرن» .. كـما أكرمـت وفادته أيضًا في جلسة القضاء ، وتناول مع المسافرين عددًا من أكواب بيرة «آل» .

شعر «توрارين» بإجهاد وفتور ، فرقد فوق حمولته .. أحزنه أن يفكر في أن هر «آرن» قد رحل ، وبينما هو يقترب من بيت الكاهن ، بدأت تعذّبه أفكار أكثر حزنا ، فقال :

«جريم ، يا كلبي ، لو أنني صدّقت تحذير السكاكين ، فربّما كنت قد دفعت أذى الكارثة كلية . هذا ما أفكر فيه غالبًا ، جريم يا كلبي ذلك أمر يقلق روحي ، وأشعر كما لو أنني كان لي دور في موت هرّ «آرن» .. لكن فلتتذكر الآن ما أقول .. في المرّة القادمة عندما أسمع مثل ذلك ، سأصدقه وأسترشد به فورًا» .

الآن ، بينما رقد «توررارين» فوق حمولته بعينين ناعستين، محاولا أن يضيع الوقت ، مضى حصانه في طريقه مسرورًا ، وحين وصل إلى بيت الكاهن بـ «سولبرجا» تحوّل إلى الفناء كالعادة القديمة ، ودخل إلى باب الإسطبل ، دون أن يعلم «تورارين» بما يجري . لكن «تورارين» نهض مع توقف الزحافة وتطلع حوله ، وسرعان ما انتابته رعدة ، حين رأى أنه كان في فناء بيت الكاهن ، الذي قتل فيه عديد من الأشخاص منذ ما لا يقل عن أسبوع .

جذب عنان الحصان فورًا ، ليحوّله ثانية إلى الطريق ، لكنه شعر في تلك اللحظة بيد توضع على كتفه ، ففكر في احتمالاتها الممكنة . وسرعان ما اكتشف إلى جواره «أولوف» العجوز ، سائس الخيل ، الذي خدم في بيت الكاهن طويلا بقدر ما يستطيع «تورارين» أن يتذكر .

تساءل العجوز :

«هل كنت تتعجل أن تغادر بيتنا هذه الليلة ، يا «توراريَن» ؟ ترجّل عن حصانك وادخل لأنّ هرّ «آرن» يجلس هناك في انتظارك» .

تواردت ألف فكرة على رأس «تـوراريَن» .. إنّـه لا يـدري أهـو في حلم أم في يقظة ، لأن «أولوف» سائس الخيل ، الـذي كـان واقفًـا إلى جواره حيًّا وفي حالة طيّبة ، سبق أن رآه منـذ أسـبوع راقـدًا ميتًـا مـع الآخرين مصابًا بجرح كبير في حنجرته .

ازدادت قبضة «توراريَن» حزمًا على عنان الحصان ، وراح يفكـر في أن أفضل ما يفعله ، هو أن ينسلّ هاربًا بقدر ما يستطيع . لكن ها هـي يد «أولوف» سائس الخيل ما تزال عـلى كتفـه ، دون أن يمنحـه التـابع العجوز أيّ سلام .

أجهد «توراريَن» ذكاءه ، ليلتمس عذرًا ، وأخيرًا قال :

«لم يكن في نيتي أن أزعج هرّ «آرن» بالزيارة متأخرًا هكذا في المساء، لكن حصاني انعطف ودخل إلى هنا ، بينما كنت غـير منتبـه . سأمـضي الآن بحثًا عن مكان أبيت فيه الليلة . إذا رغـب هِـرّ «آرن» في رؤيتـي ، سأعود ثانية غدًا» .

عندئذ انحنى «توراريَن» للأمام ، وضرب حصانه بالجزء المتدلي من سير اللجام حتى يجعله ينطلق . لكــن في اللحظـة نفـسها، كـان رجـل

بيت الكاهن على رأس الحصان ممسكًا باللجام ، ومجبرًا إيّاه على التوقف ، وهو يقول :

«فلتتوقف عن عنادك ، يا «تورارين» ! لم يذهب هرّ «آرن» حتى الآن إلى الفراش ، إنّه ما زال ينتظرك . وينبغي أن تعرف جيدًا ، أنه يمكن أن تفيد هنا بإقامة ليلة جيّدة مثل أيّ مكان آخر في الأبرشية» .

كان «تورارين» على وشك أن يجيب بأنه لا يمكن أن يبيت في بيت دون سقف ، ولكن قبل أن يتحدث ، رفع بصره إلى بيت الكاهن ، فرأى أن الردهة الخشبية القديمة موجودة، ولم تمسّ بسوء تمامًا كما كانت قبل الحريق . كما رأى «تورارين» ، في ذلك الصباح أيضًا ، عارضات خشبية عارية ممتدة في الهواء .

نظر ، ونظر ثانية ، وحكّ عينيه ، لكن لم يكن هناك أيّ شكّ فيما يرى، كان بيت الكاهن قائمًا هناك مع قش وجليد فوق سطحه ، دون أن يمسّ بسوء .. رأى شرارات، تتسلل خارجه وسط تيّار دخان من كوّة التهوية ، وأشعة ضوء تومض فوق الجليد عبر مصاريع سيئة الإغلاق .

يعرف الرجل ، الذي يسافر إلى أيّ مكان على طريق بارد ، أنّه ليس هناك من منظر أفضل من ومضة تقتنص من غرفة دافئة . لكن الفعل الذي جعل «تورارين» مرتعبًا أكثر ممّا كان ، هو أنه حين أزعج حصانه كثيرًا حتى هاج ورفس ، لم يتزحزح أيّة خطوة من مكانه بعيدًا عن باب الإسطبل .

قال سائس الخيل :

«تعال معي يا «توراريـن» .. كنت أعتقـد أن لـديك مـا يكفـي مـن الندم فعلا بالنسبة لهذا الأمر» .

عندئذ تذكر «توراريـن» العهد ، الذي قطعه عـلى نفسـه وهـو عـلى الطريق ، وذلك على الرغم من أنه قبل دقيقة كـان قـد نهـض ونخـس حصانه باهتياج ، إلاّ أنه أصبح الآن حليمًا كخروف .

قال ، وهو يقفز عن الزحافة إلى الأرض :

«حسنًا يا سائس الخيل «أولوف» ، ها أنا ذا!» .

ثم أكمل :

«من الصحيح أنني لا أرغب في مزيد من النـدم .. أدخلنـي إلى هـر «آرن»» .

مضى توراريـن عبر الفناء إلى البيـت بخطـوات، كانـت هـي أثقـل خطواته على مدار حياته .

حين فتح الباب ، أغلق عينيه حتى يتجنب النظر إلى الحجرة ، لكنّه حاول أن يشغل نفسه بالتفكير في هرّ «آرن» **«كم قـدّم لـك كثـيرًا مـن الوجبات الطيبة ، واشترى منك سمكًا حتى حـين كـان لديـه مخـزون كبير . كم أظهر لك من الطيبـة خـلال حياتـه ، ومـن المؤكـد أنـه لـن يؤذيك بعد موته . ربّما كان لديه خدمة يريـد أن يطلبهـا منـك . يجـب ألاّ تنسى ، يا توراريـن ، أننا يجب أن نعترف بالفضل للموتى تمامًا مثلما نفعل مع الأحياء» .**

فتح «تورارين» عينيه وتطلع إلى عمق الغرفة ، فرأى القاعة الواسعة تمامًا كما سبق أن رآها من قبل .. تعرّف على فرن القرميد والأنسجة ذات الرسوم المعلقة على الحوائط . لكنه تطلع عدّة مرات من حائط إلى آخر، قبل أن يجرؤ على أن يرفع عينيه إلى المائدة وإلى المقعد الخشبي؛ حيث تعوّد هرّ «آرن» أن يجلس .

أخيرًا نظر إلى هناك ، عندئذ رأى هرّ «آرن» نفسه جالسًا بشحمه على رأس المائدة، وزوجه إلى جانب ومساعده إلى الجانب الآخر ، تمامًا كما سبق أن رآه من أسبوع مضى .. بدا أنه قد انتهى توًّا من وجبته ، كان الطبق قد دفع بعيدًا ، واستقرت ملعقته أمامه على المائدة . كما جلس إلى المائدة كلّ الرجال العجائز والنسوة الخادمات ، بينهن فتاة واحدة شابة .

توقف «تورارين» طويلا إلى جوار الباب ، مراقبًا الجالسين إلى المائدة . كانوا جميعًا يبدون قلقين وحزانى ، وحتى هرّ «آرن» كان عابسًا مثل الباقين ، وقد أسند رأسه بيده .

أخيرًا ، رآه «تورارين» يرفع رأسه :

«أيها السائس «أولوف» .. هل أحضرت الغريب إلى البيت؟» .

أجاب الرجل :

«نعم . إنه «تورارين» بائع السمك الجوّال ، الذي كان اليوم في جلسة القضاء في «برانهوج»» .

بدا أن نظرات هرّ «آرن» قد صارت أكثر ابتهاجًا عند سماع ذلـك ، وسرعان ما سمعه «تورارين» يقول :

«تقدم إليّ إذن ، يا «تورارين» ، قل لنا أخبار القضاء ، لقد جلست هنا، وانتظرت طوال نصف الليل» .

بدأ «تـورارين» ، في مثـل هـذا الجـوّ الـصادق والطبيعـي ، يـشعر بشجاعة أكبر .. مشى بجسارة تامة عبر الغرفة إلى هـرّ «آرن» ، سـائلا نفسه عمّا إذا كان مصرعه لم يكن سوى مجـرد حلـم ، أم أنـه لم يكـن في الحقيقة حيًّا .

لكن بينما عبر «تورارين» الغرفة ، سقطت عيناه بنظرة قديمة معتادة على الفراش ذي القوائم الأربعة ، ثم انتقلت إلى جانب صندوق حفظ النقود الكبير المعتاد وجوده أيضًا . لكن الصندوق المطـوّق بالحديـد لم يكن في مكانه ، وحين رأى «تورارين» ذلـك سرت في جـسده رعـشة مرّة أخرى .

قال هر «آرن» :

«والآن يا «تورارين» ، حان أن تخبرني كيف جرت الأمـور اليـوم في جلسة القضاء» .

حاول «تورارين» أن يجيب عـمّا طلـب منـه ، ويحكـي عـن جلـسة القضاء والتحقيق ، لكنه لم يستطع أن يأمر شـفتيه أو لـسانه ، فجـاءت كلماته متلعثمة مليئة بالأخطاء ، لدرجة أنّ هرّ «آرن» أوقفه على الفور :

«أخبرني فقط بالأمر الجوهري يا «تورارين» .. هـل وجـدوا قتلتنـا وعاقبوهم؟» .

وجد «تورارين» الجسارة ليجيب :

«لا . إنّ قتلتك يرقدون في بطن سمكة في البحر .. كيف يمكنك أن تحقق أيّ انتقام منهم؟» .

حين أعاد «تورارين» هذه الإجابـة ، اضـطرب مـزاج هـرّ «آرن» ، وضرب المائدة بقوة :

«ما هذا الذي تقول يا «تورارين»؟ هل جـاء عمـدة «بوهـوز» مـع القضاة والكتبة إلى هنا ، وعقدوا جلسة قضاء ، ولم يكن لدى أيّ منهم الإدراك كي يعرف أين يمكن أن يوجد قتلتي؟» .

أجابه «تورارين» :

«لا ، يا هر «آرن» ، ليس هناك بين الأحياء من يمكنه أن يفعل» .

جلس هرّ «آرن» لوهلة، وتقطيبـة تعلـو محيّـاه ، محملقًـا عـلى نحـو كئيب أمامه . ثم استدار مرة أخرى إلى «تورارين» :

«أعرف أنك تحمل لي عاطفة طيبة يا «تورارين» .. هـل يمكنـك أن تخبرني كيف يتسنى لي أن أنتقم من قتلتي؟» .

أجاب «تورارين» :

«يمكنني أن أتفهّم جيدًا رغبتك يا هرّ «آرن» في أن تنتقم من أولئك الذين جرّدوك من حياتك بقسوة شديدة .. لكن ليس هنـاك مـن بيننـا ممن يمشي على أرض الله ، من يمكنه أن يساعدك في ذلك» .

سقط هر «آرن» في لجّة تفكير عميق ، حين سمع هذه الإجابة .. كان هناك صمت طويل ، وبعد فترة تجرّأ «تورارين» على أن يتقدم بهذا الطلب :

«لقد أجبت عما طلبت يا هر «آرن» ، وأخبرتك كيف كانت جلسة القضاء .. هل هناك شيء آخر تريدني من أجله ، أم تدعني الآن أمضي؟».

قال هر «آرن» :

«لا ينبغي أن تذهب يا «تورارين» ، حتى تجيبني مرة أخرى ، أليس هناك بين الأحياء من ينتقم لنا؟» .

قال «تورارين» :

«لا ، حتى لو تعاون رجال «بوسلين» والنرويج على أن ينتقموا من قتلتك ، فلن يكونوا قادرين على أن يجدوهم» .

عندئذ قال هرّ «آرن» :

«إذا لم يستطع الأحياء أن يساعدونا ، فعلينا أن نساعد أنفسنا» .

بدأ هرّ «آرن» ، بعد ذلك ، في القيام بصلاة ربانية بصوت مرتفع ، ليس باللغة النرويجية بل باللاتينية ، كما اعتاد أن يفعل مع الجمهور من قبل . وبينما كان يتمتم بكلمة من صلاته، كان يشير بأصبعه إلى واحد من الجالسين معه على المائدة . وتكرّر الأمر على هذا النحو عدّة مرات، حتى وصل إلى ختام الصلاة .. وبينما كان ينطق بكلمة آمين ، أشار بأصبعه إلى الفتاة الشابة ، التي كانت ابنة أخته .

نهضت الفتاة الشابة فورًا من المقعد ، فقال لها هرّ «آرن» :

«أنت تعرفين ما ينبغي عليك عمله» .

عندئذ انتحبت الفتاة الشابة ، قائلة :

«لا ترسلني في هذه المهمة! إنه عبء شديد العسر كي تضعه على فتاة شديدة الضعف مثلي» .

قال هر «آرن» :

«بل ستذهبين بالتأكيد .. من الحق أن تذهبي ، طالما كان لديك الأكثر كي تنتقمي له . لم يسلب من أيّ منا هذا العدد الكبير من سنين العمر مثلك ، فأنت الأصغر بيننا» .

قالت الفتاة :

«لكنني لا أرغب في الانتقام من أيّ إنسان» .

أصرّ هرّ «آرن» :

«ينبغي عليك أن تمضي فورًا ، ولن تكوني وحدك ، فأنت تعرفين أن هناك اثنين بين الأحياء ممن جلسوا معنا على المائدة هنا منذ أسبوع مضى» .

حين سمع «توررارين» هذه الكلمات ، ظنّ أنها تعني أن هرّ «آرن» يكلّفه بأن يكافح الأشرار والقتلة ، فصاح :

«من أجل رحمة الآلهة ، إنني أناشدك يا هر «آرن» ..» .

بدا في تلك اللحظة لـ «توراريين» أن كلًّا من هرّ «آرن» وبيته قد تلاشيا في ضباب ، وغاص هو نفسه كما لو كان قد سقط من ارتفاع شاهق ، وعندئذ فقد وعيه .

حين استعاد «توراريين» وعيه مرة أخرى ، كان الفجر يشرق ، ورأى أنّه كان راقدًا على الأرض في فناء بيت الكاهن بـ «سولبرجا» .. كان الحصان واقفًا إلى جواره مع الزحافة ، وجريم إلى جانبه ينبح ويعوي .

قال «توراريين» :

«لم يكن ذلك إلاّ مجرد حلم .. الآن أرى ذلك ، فالبيت خرب مهجور . إنني لم أرَ هرّ «آرن» أو أيًّا من الآخرين .. لكن كم كان مروعًا تمامًا في الحلم أن أنسحب من المسئولية» .

الفصل الرابع

على ضوء القمر

بعد أن مات هرّ «آرن» بأسبوعين ، سطع ضوء القمر في بعض الليالي واضحًا لامعًا .. وذات ليلة خرج «توررارين» مع زحافته ، بعد أن تفحّص حصانه مرارًا وتكرارًا، كما لو أنه يجد صعوبة في إيجاد الطريق ، حتى أنه لم يعد يقوده عبر أيّ منطقة غير مطروقة ، بل إلى ما يبدو أنه سهل متسع مفتوح ترتفع أعلاه عدّة هضاب حجرية صغيرة .

كانت كلّ قطعة من الأرض مغطاة بجليد يتألق بياضًا ، بعد أن وقعت ضحية طقس معتدل مستقر ، وليس من خلال تراكمات ودوّامات .. لم يكن هناك من شيء على مرمى البصر سوى السهل ونفس الهضاب الحجرية الصغيرة .

قال تورارين :

«جريم يا كلبي ، إذا شاهدنا هذا للمرّة الأولى في هذه الليلة ، فينبغي أن نفكر في أننا نمضي عبر أرض بور ضخمة . لكننا يجب أن نتعجب من أنّ الأرض بل وحتى الطريق كانا خاليين من الأحجار

والحفر .. أيّ قطعة أرض يمكن أن تكون هذه الأرض ، كما ينبغي أن نقول ، حيث لا توجد قنوات أو أسوار ، وكيف يتأتّى ألاّ يوجد عشب أو شجيرات بازغة من بين الجليد؟ وكيف لا نرى أنهارًا أو مجاري مائية ترسم أخاديدها السوداء عبر الحقول البيضاء ولو في أكثر مناطق الصقيع صلابة؟» .

كان «توررارين» مبتهجًا مع هذه الأوهام ، كما وجد جريم سروره فيها أيضًا ، وإن لم يتحرك من مكانه فوق الحمولة ، فما زال راقدا ، تطرف عيناه .

لكن بمجرد أن أنهى «توررارين» حديثه ، قاده عابرًا قطبًا ضئيل القيمة، ثبتت إليه علامة .

قال «توررارين» :

«إذا كنّا غرباء هنا ، جريم يا كلبي ، فربّما سألنا أنفسنا ما نوع هذه الأرض البور ، التي أقاموا فيها علامات مثل تلك التي نستخدمها في البحر .. لا يمكن أن يكون هذا هو البحر بنفسه ، وهو ما ينبغي أن نقوله أخيرًا . لكن ينبغي أن نفكر في استحالة ذلك تمامًا ، فهذا الذي يستقر ثابتًا راسخًا ، هل يمكن أن يكون فقط مجرّد ماء؟ وكلّ هذه الهضاب الصغيرة التي نراها متحدة بثبات ، هل يمكن أن تكون مجرد

جزر صغيرة أو جزر صخرية فرّقتها الأمواج المتلاحقة ؟ لا ، لا ينبغي أن نصدّق أن ذلك ممكن ، جريم يا كلبي» .

ضحك «تورارين» ، وظلّ جريم راقدًا هادئًا دون أن يتحرّك ، واستمر «تورارين» في القيادة حتى استدار حول هضبة عالية . ثم أطلق صيحة دهشة كما لو أنّه رأى شيئًا غريبًا ، أدّى في العلن إلى مفاجأة عظيمة ، حين أسقط العنان وصفق بيديه ، قائلا:

«جريم يا كلبي ، وهكذا فإنك لن تصدق أن هذا هو البحر ! الآن يمكنك أن تقول ما هو . انهض ، ومن ثم سترى أن هناك سفينة كبيرة مستقرة أمامنا! لن تستطيع أن تتعرّف على المنارات ، لكن هذه لن يمكنك أن تخطئها . الآن ، لا أعتقد أنك لن تفكر أن هذا ، الذي نمشي فوقه ، هو البحر نفسه» .

مكث «تورارين» ساكنًا لوهلة أطول ، وهو يحملق إلى السفينة العظيمة ، التي وقفت متجمّدة .. إنها تبدو غريبة كليّة عن المكان ، بينما هي مستقرة وحولها حقول جليد ناعمة .

لكن ما إن رأى «تورارين» عمودًا رفيعًا من دخان يرتفع من مؤخرة السفينة ، حتى صعد مناديًا على الربّان كي يسمعه ، فقد يشتري سمكا. كان قد بقي لديه قليل من سمك القدّ في قاع حمولته ؛

لأنه كان قد لفّ على مدار اليوم على كلّ السفن ، التي كانت متجمدة بين الجزر، وباعها بعضا من فائض مخزونه .

كان الربان وبحارته على سطح السفينة ، وكان الوقت يمرّ ثقيلا عليهم ، ولذلك اشتروا سمكا من البائع المتجوّل ، ليس بسبب حاجتهم إليه ، بل حتى يجدوا شخصًا يتبادلون معه الحديث . حين هبطوا على الجليد ، أدّى «توrارين» عرضًا بسيطًا ، حين بدأ يتحدث عن الطقس ، قائلا :

«لم يوجد طقس طيب ، في ذاكرة الإنسان ، مثل طقس هذا العام . منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا كان لدينا طقس معتدل وصقيع صعب . لم يكن ذلك ما اعتدنا عليه في الجزر» .

لكن الربان ، الذي مكث هناك بحمولته الكاملة من سمك الرنجة الوافد من بلاد الغال ، والذي حوصر بالجليد في الخليج قرب «مارستراند» ، عندما كان مستعدًّا لأن ينطلق إلى البحر ، نظر إلى «توراربن» نظرة حادة ، وقال :

«وهكذا فأنت تعتبر هذا طقسًا طيبًا؟» .

نظر «توراربن» ببراءة طفل ، وأجاب :

«وكيف أعتبره شيئًا آخر؟ السماء صحو ، ساكنة ، زرقاء ، والليل جميل مثل النهار . إنني لم أعرف من قبل أبدًا وقتًا مثل هذا يمكنني أن

أتجوّل فيه خلال الجليد أسبوعًا بعد أسبوع . إنه ليس هو البحر ، الذي يتجمّد هنا غالبًا ، وإذا تكوّن الجليد من حين إلى آخر ، فسرعان ما تأتي دائمًا عاصفة خلال عدة أيام لتضع حدًّا له» .

ما زال الربان يبدو متشائمًا مكتئبًا ، ولم ينطق ببنت شفة ، كي يردّ على حديث «توررارين» .. عندئذ بدأ «توررارين» يسأل عن السبب في أنه لم يشقّ طريقه إلى «مارستراند» قائلا :

«لا يستغرق الأمر أكثر من ساعة سيرًا على الجليد» .

ومرة أخرى ، لم تصله أي إجابة ، وفطن «توررارين» إلى أن الربان يخشى أن يغادر سفينته للحظة ، مخافة أن لا يكون في متناول السفينة حين ينتهي الجليد .

فكر «توررارين» «نادرًا ما رأيت مثل تلكما العينين المشبعتين **بالشوق»**.

لكن الربان ، الذي حوصر بين جزر صخرية يومًا وراء يوم ، غير قادر على رفع مراسيه والمضي إلى البحر ، كان مشغولا في تلك اللحظة بعديد من الأفكار ، فقال لـ «توررارين» :

«أنت رجل تسافر كثيرًا إلى كلّ الأنحاء ، وتسمع كثيرًا من الأخبار عن كلّ ما يحدث : هل يمكنك أن تخبرني لماذا سد الإله الطريق إلى البحر طويلا هذا العام مبقيًا إيانا جميعًا في الأسر؟» .

عندما سمع «تورارين» هذا توقف عـن الابتـسام ، لكنـه أدّى دور جاهل ، وهو يتساءل :

«أنا لا أعرف ماذا تعني بذلك؟» .

قال الربان :

«حسنًا ، لقد احتجزت ذات مرة في ميناء «بـرجن» شـهرًا كـاملا ، وهبّت رياح عكسية طوال ذلك الوقت ، لدرجة أن أية سفينة لم تستطع أن تبحر .. كان على سطح واحدة من تلك السفن ، التي بقيـت هنـاك تحاصرها الريح ، رجل سرق كنائس وكان يمكن أن يمضي حـرًّا لـولا العاصفة ، التي أتاحت لهم وقتًا كي يبحثـوا عنـه ، وحالما أخـذوه إلى الشاطئ جاء طقس طيب ورياح معتدلة . هـل فهمـت الآن مـا عنيتـه حين طلبت منك أن تخبرني عن السبب في أن يبقـي الله بوابـات البحـر مسدودة؟» .

ظلّ «تورارين» صامتًا لوهلة .. كان يبدو عليه بأنه سيجيب بشكل جاد ، لكنه عدل عن ذلك ، وقال :

«لقد أصابتك الكآبة من المكوث سجينًا هنا بين الجـزر الـصخرية . لماذا لا تأتي إلى «مارستراند»؟ يمكننـي أن أخـبرك أن هنـاك بهجـة مـع مئات من الغرباء في المدينة ، لا يشغلهم جميعًـا شيء سـوى أن يـشربوا ويرقصوا».

تساءل الربان :

«كيف يحدث أن يكونوا شديدي البهجة هناك» .

أجابه «تورارين» :

«آه ، هناك كلّ رجال البحر ، الذين حوصرت سفنهم ، مثل سفينتك .. هناك حشر من الصيادين الذين انتهوا من صيد سمك الرنجة ، ثم منعهم الجليد من الإبحار والعودة إلى الوطن . وهناك مائة من المرتزقة الأسكتلنديين ، الذين سرّحوا من الخدمة ومكثوا هناك بانتظار سفينة تحملهم إلى وطنهم أسكتلندا . هل تعتقد أن كل هؤلاء الرجال ينبغي أن يغلقوا عقولهم ، ويخسروا فرصة أن يبتهجوا؟» .

قال الربان :

«آه ، قد يكون أمرًا طيبًا أن يستطيعوا أن يسرّوا عن أنفسهم ، أمّا بالنسبة لي ، فإنّ لدي هنا ذهنًا يبقيني خارجًا» .

نظر «تورارين» إليه نظرة سريعة .. كان الربان رجلا طويلا نحيفًا ، وكانت عيناه متألقتين صافيتين مثل الماء ، مع نظرة كئيبة فيهما ، ففكر «تورارين» **«ليس في مكنتي أو مكنة أي شخص آخر أن يجعل ذلك الرجل مبتهجًا» .**

بدأ الربان يسأل ثانية بوازع ذاتي :

«هؤلاء الأسكتلنديون ، هل هم جماعة صادقة؟» .

سأل «تورارين» :

«هل هو أنت ، الذي ربما ينقلهم إلى أسكتلندا؟» .

أجاب الربان :

«حسنًا ، إنّ لديّ بضاعة أحملها إلى «ادنبرج» ، وكان أحدهم هنا الآن وسألني إذا كان ممكنًا أن أنقلهم . لكن ليس لديّ سوى ميل ضئيل للإبحار مع مثل هذه الرفقة المتوحشة إلى الخارج ، فطلبت منه وقتًا كي أفكر في الأمر . هل سمعت البتة عنهم ؟ وهل ترى أن أغامر بأن آخذهم؟» .

أجاب «تورارين» :

«لم أسمع أيّ شيء عنهم عدا أنّهم رجال جسورون . أنا لا أشك لكن ربّما يمكنك أن تأخذهم آمنًا» .

لكن ما إن قال «تورارين» ذلك ، حتى انتفض كلبه من الزحافة ، شامخًا بأنفه في الهواء وبدأ يعوي .

أوقف «تورارين» مدائحه للأسكتلنديين فورًا ، وقال :

«ماذا يزعجك الآن ، جريم يا كلبي ؟ هل تعتقد أنني مكثت هنا وقتًا طويلا ، مبددًا الوقت في الحديث؟» .

واستعد كي ينطلق، صائحًا:

«حسنًا، ليكن الله معكم جميعًا!».

توجّه «توراربن» إلى «مارستراند» من خلال طريق يربط بين «كلوفر» و«كون». وحين أصبح على مرأى من المدينة، لاحظ أنه لم يكن وحده على الجليد، وذلك حين رأى على ضوء القمر الساطع رجلا يمشي على الجليد مختالا بذاته. كما رأى أنه ارتدى قبعة مزيّنة بالريش وملابس غالية الثمن ذات أجزاء منتفخة وافرة.

«مرحبًا».

قال «توراربن» لنفسه **«ها هو سير «آرشي»، قائد الأسكتلنديين يمضي هناك، بعد أن خرج هذا المساء كي يحجز رحلة بالبحر إلى أسكتلندا».**

كان «توراربن» قريبًا جدًّا من ظلّ الرجل الطويل، الذي يتبعه. كانت حوافر جواده تلمس بالكاد ظلّ قبعته المزينة بالريش.

قال «توراربن»:

«يا جريم، هل نسأله أن يمضي معنا إلى «مارستراند»؟».

بدا الكلب يتخذ فورًا موقفًا عدائيًّا، فمدّ «توراربن» يده إلى ظهره:

«فلتهدأ، جريم يا كلبي! أرى أنك لا تكنّ أيّ حبّ للأسكتلنديين».

لم يلاحظ سير «آرشي» أنّ هناك أيّ فرد قريب منه .. كـان مـستمرًّا في السير دون أن ينظر حولـه .. وتحـوّل «تـورارين» بهـدوء شـديد إلى جانب كـي يـسمح لـه بـأن يعـبره . لكـن في تلـك اللحظـة ، شـاهد «تورارين» وراء الشاب الأسكتلندي الأنيق شيئًا بدا كظلّ آخر .. رأى شيئًا رماديًّا طويلا رفيعًا هفا على سطح الجليد الأبـيض دون أن يـترك أي آثار أقدام أو يسحق الجليد بجلبة .

تقدم الأسكتلندي بخطوات واسعة سريعة طويلة ، دون أن يلتفت يسارًا أو يمينًا . لكـن الظـلّ الرمـادي انـسل وراءه ، قريبًـا منـه جـدًّا لدرجة أن بدا كما لو أنه يهمس في أذنه .

استمر تورارين يقود ببطء ، حتى صار جنبًا إلى جنب معه .. عندئذ رأى وجه الأسكتلندي على ضوء القمر الساطع .. كان يمشي مقطـب الوجه ، وبدا مرتبكًا كما لو أنه مشغول البال بأفكار مزعجة .

وبمجرّد أن تجاوزه «تورارين» ، استدار الرجل ونظر وراءه كما لـو كان معنيًّا بشخص يتبعه .

رأى «تورارين» بوضوح وراء سير «آرشي» ثوبًـا طـويلا فـضفاضًا لفتاة شابة في ملابس رمادية طويلة .. لكن سير «آرشي» لم يكن يراها . وحين أدار رأسه ، وقفت دون أن تتحرك ، وسقط ظـلّ سـير «آرشي» نفسه عليها، مظلمًا عريضًا ، فأخفاها .

استدار سير «آرشي» مرة ثانية فورًا، ومضى في طريقه، ومرة أخرى هرولت الفتاة إلى الأمام، وبدت كما لو كانت تهمس في أذنه.

حين رأى «تورارين» ذلك، أصبح رعبه أكثر ممّا يمكن احتماله، فصاح بصوت عالٍ، وغمز حصانه حتى يدفعه إلى العدو بأقصى سرعة إلى باب كوخه، وهو ينضح عرقًا.

الفصل الخامس

مطاردة

: I

انتصبت المدينة بكل منازلها ومبانيها على ذلك الجزء من جزيرة «مارستراند» ، التي تطلّ على الشاطئ ، وكانت محمية بإكليل من أراضٍ منخفضة وجزر صغيرة .. احتشد السكان في شوارعها وأزقتها، حيث يوجد الميناء مليئًا بسفن وقوارب وأرصفة مع بشر مشغولين بإخراج أحشاء السمك وتمليحه ، وهناك كانت تقع كنيسة المدينة وفناؤها وقاعتها . كما تنتصب أيضًا شجرة شامخة ترفرف أفرعها الخضراء وقت الصيف .

ولكن على ذلك النصف من جزيرة «مارستراند» ، التي تطلّ باتجاه الغرب على البحر ، غير محمية بجزر صغيرة أو صخرية ، لم يكن هناك شيء سوى صخور قاحلة عارية وألسنة مسننة من الأرض مدفوعة من البحر وسط الأمواج . كان هناك نبات الخلنج بعناقيده البنية ،

وشجيرات لاسعة الأشواك ، وحفر ثعلب الماء والثعلب ، دون أن يكون هناك على الإطلاق أيّ ممر أو بيت أو علامة لإنسان .

انتصب كوخ «توراربن» عاليًا على ظهر الجزيرة ، وكان يقع بين المدينة من جانب والبرِّية من جانب آخر . وحين فتحت «الزاليل» الباب، خرجت إلى شرائح عريضة عالية من الصخور ، التي انبسط فوقها مشهد واسع باتجاه الغرب حتى الأفق المظلم للبحر المفتوح .

اعتاد كلّ رجال البحر من الصيادين ، الذين أبقاهم الجليد محاصرين في «مارستراند» ، أن يمرّوا على كوخ «توراربن» كي يتسلقوا الصخور ، بحثًا عن أيّة إشارة لانقشاع الجليد في المضايق والخلجان الصغيرة .

كم مرّة من المرات وقفت «الزاليل» على باب الكوخ ، متتبعة بعينيها الرجال وهم يصعدون صخور الجزيرة .. كانت شديدة الأسى لما أصابها ، وقالت لنفسها : «**أعتقد أن أيّ فرد سعيد لديه دائمًا ما يهتم به. لكن ليس لديّ ، في هذا العالم المتسع ، أيّ شيء تتعلق به آمالي**» .

وذات مساء ، شاهدت «الزاليل» رجلا طويلا يرتدي قبعة عريضة الحوافّ بريش عظيم ، يقف على الصخور محملقًا باتجاه الغرب نحو البحر مثل كلّ الآخرين . عرفت «الزاليل» على الفور أنّ ذلك الرجل كان سير «آرشي» ، قائد الأسكتلنديين ، الذي سبق أن تحدث معها على رصيف الميناء .

عندما مرّ إلى جوار الكوخ ، في طريق عودته إلى المدينة ، كانت «الزاليل» ما تزال واقفة على المدخل تبكي .

توقف أمامها ، متسائلا :

«لماذا تبكين؟» .

أجابت «الزاليل» :

«أبكي ، لأنني ليس لديّ ما أتوق إليه . وحين رأيتك واقفًا على الصخور ، متطلعًا عبر امتداد البحر ، فكرت : هناك بالتأكيد يقع وطنه فيما وراء البحر ، وإلى هناك سيمضي» .

عندئذ رقّ قلب سير «آرشي» ، وهو ما جعله يقول :

«لقد انقضى ما يقرب من عام منذ أن تحدّث آخر فرد معي عن وطني . يعلم الله كيف صار حال منزل أبي . لقد غادرته حين كنت في السابعة عشرة من عمري ، كي أخدم في الحروب بالخارج» .

دخل سير «آرشي» الكوخ مع «الزاليل» ، وهو يقول ذلك ، وبدأ يحدثها حول وطنه . جلست «الزاليل» تنصت لسير «آرشي» ، الذي كان يجيد الحديث لوقت طويل . كانت كلّ كلمة تخرج من بين شفتيه تجعلها سعيدة . لكن حين اقترب وقت ذهاب سير «آرشي» ، سألها إن كان ممكنًا أن يقبّلها . عندئذ ، قالت «الزاليل» : «لا» ، وحاولت أن تتسلل من الباب، لكن سير «آرشي» اعترض طريقها محاولا أن يجعلها تقبله .

في تلك اللحظة انفتح بـاب الكـوخ ، ودخلـت سـيدتها في عجلـة شديدة ، فتراجع سير «آرشي» عن «الزاليل» ، وأعطاهـا ببـساطة يـده مودعًا، وهرول مبتعدًا .

قالت والدة «توررارين» لـ «ازاليل» :

«كان أمرًا طيبًا أن أرسلت في طلبـي ، لأنّـه لـيس مـن المناسـب أن تجلس عذراء وحدها في البيـت مـع رجـل مثـل سـير «آرشي» . أنـت تعلمين جيدًا ، أنّه جندي مرتزق ليس لديه شرف أو ضمير» .

تساءلت «الزاليل» مندهشة :

«هل أرسلت في طلبك؟» .

أجابت السيدة العجوز :

«نعم ، إذ بينما كنت أعمل هناك على الرصيف ، جـاءت فتـاة صـغيرة لم أرها من قبل أبدًا ، حاملة لي رسالة بأنك ترجينني أن أعود إلى البيت».

سألت «الزاليل» :

«كيف بدت هذه الفتاة؟» .

أجابت العجوز :

«إنني لم أنتبه إليها عن قرب شديد حتى يمكننـي أن أخـبرك كيـف بدت ، لكنني لاحظت شـيئًا واحـدًا ، هـو ذهابهـا بخفّـة عـلى الجليـد لدرجة أنه لم يسمع لها أي صوت» .

حين سمعت «الزاليل» ذلك ، شحب وجهها بشدة ، وقالت :

«إذًا ينبغي أن يكون ملاكًا من السماء ، هو الذي حمل إليك الرسالة وقادك إلى البيت» .

:II

في وقت آخر ، جلس سير «آرشي» في كوخ «تورارين» ، متحدثًا مع «الزاليل» . لم يكن هناك أحد إلى جوارهما ، فتبادلا الحديث بمرح ، وكانا مبتهجين . كان سير «آرشي» يخبر «الزاليل» أنها ينبغي أن تمضي معه إلى الوطن ، إلى أسكتلندا . هناك سيبنى لها قصرًا ويجعل منها سيدة رائعة . أخبرها أنه سيكون هناك مائة من الخادمات ينتظرن أوامرها ، وأنها ينبغي أن ترقص في بلاط الملك .

جلست «الزاليل» صامتة تنصت لكلّ كلمة يقولها سير «آرشي» ، وقد صدقتها جميعا . وفكر سير «آرشي» بأنه لم يسبق أن قابل من قبل أبدًا أيّة آنسة يسهل خداعها مثل «الزاليل» .

فجأة توقف سير «آرشي» عن الكلام ناظرًا بترفع إلى يده اليسرى ، فتساءلت «الزاليل» :

«ماذا يحدث ، يا سير «آرشي»؟ لماذا توقفت عن الحديث؟» .

فتح سير «آرشي» يده وأغلقها بشكل متشنج ، وأدارها هنا وهناك، فسألت «الزاليل» ثانية :

«ماذا يحدث يا سير «آرشي»؟ هل آلمتك يدك فجأة؟» .

عندئذ تحول سير «آرشي» إلى «الزاليل» ممتقع الوجه ، قائلا :

«هل ترين هذا الشعر يا «الزاليل» ، ذلك الملفوف حول يدي؟ هل ترين خصلة الشعر الحرّ تلك؟» .

حين بدأ يتكلم ، لم ترَ الفتاة شيئًا ، لكن حين انتهى رأت الفتاة لفّة من شعر حرّ جميل دوّرت نفسها مرتين حول يد سير «آرشي» .

انتفضت «الزاليل» مرعوبة ، وصرخت :

«شعر من ذلك ، يا سير «آرشي» ، المعقود حول يدك؟» .

نظر إليها سير «آرشي» مشوشًا ، لا يدري ماذا يقول :

«إنه شعر حقيقي يا الزاليل ، إنني أشعر به .. إنه يستقر ناعمًا وباردًا حول يدي .. لكن متى جاء؟» .

ظلت الفتاة تنظر في قلق إلى يده ، بدا أن عينيها ستخرجان من محجريهما أخيرًا قالت :

«إذا ، هل هو شعر الأخت «فوستر» ملفوف حول اليد التي قتلتها؟» .

لكن سير «آرشي» انفجر ضاحكًا ، وسرعان ما سحب يده ، قائلا :

«لماذا ، أنت وأنا ، يا «الزاليل» ، نخيف نفسينا مثل طفلين صغيرين؟ إنه ليس أكثر من حزمة من أشعة شمس لامعة تسللت من النافذة» .

لكن الفتاة انخرطت في البكاء، قائلة:

«أراني الآن رابضة مرة أخرى بجوار الموقد، متابعة القتلة خلال عملهم. آه، كم أملت ألاّ يجدوا الأخت العزيزة «فوستر» حتى النهاية، لكن أحدهم جاء واقتلعها من الحائط، وعندما فكرت في الهرب جدل شعرها حول يده، وجذبها بسرعة، فسقطت على ركبتيها أمامه وهي ترجوه: «ارحم شبابي! أبقِ على حياتي، دعني أعش طويلا كي أعرف لماذا جئت إلى العالم، إنني لم ألحق بك أي أذى، فلماذا تقتلني؟ لماذا تنكر حقي في الحياة؟». لكنه لم يولِ كلماتها اهتمامًا وقتلها».

حين قالت «الزاليل» ذلك، وقف سير «آرشي» وقد عبست ملامحه، وأدار عينيه بعيدًا.

قالت «الزاليل»، وهي واقفة أمام سير «آرشي» بقبضتي يديها محكمتي الإغلاق:

«آه، لو أنني قابلت ذلك الرجل يومًا!».

عقّب سير آرشي:

«لن تقابلي ذلك الرجل أبدًا، لأنّه مات».

لكن الفتاة رمت بنفسها على المقعد، وانتحبت قائلة:

«يا سير «آرشي» ، لماذا جلبت الموتى إلى أفكاري؟ الآن ، ينبغي عليّ أن أبكي طوال المساء وطوال الليل . دعني الآن ، يا سير «آرشي» ، لأنني لا أفكر حاليًا سوى في الموت . لا يمكنني الآن أن أفكر إلاّ في الأخت «فوستر» فقط ، وكم كانت عزيزة عليّ» .

لم يكن لدى سير «آرشي» من القوّة ما يثنيها عن عزمها ، لكن دموعها ونحيبها طرده .. فرجع إلى رفاقه .

III:

لم يفهم سير «آرشي» لماذا كان ذهنه مشغولا دائمًا بأفكار ثقيلة ، لم يكن يستطيع الإفلات منها ، سواء شرب مع رفاقه أو جلس يتحدث مع الزاليل . حتى لو رقص طوال الليل على أرصفة تحميل السفن فستظلّ تلك الأفكار تلازمه ، حتى لو تجوّل في كل مكان فوق البحر المتجمد ، فستتبعه إلى هناك .

سأل سير «آرشي» نفسه : «لماذا أنا مجبر دائمًا على أن أتذكّر ما يسعدني أن أنساه؟ يبدو الأمر كما لو أن شخصًا يتلصص دائمًا ورائي ، هامسًا في أذني» .

ثم استطرد ، يفكّر : «يبدو الأمر كما لو أن شخصًا ينسج شبكة من حولي ، كي يسيطر على كلّ أفكاري ، ولا يترك لي شيئًا ، سوى تلك

الأفكار .. قد لا أستطيع أن أرى المطارد الـذي يعـدّ الـشبكة ، لكنني أستطيع أن أسمع خطاه أثناء مجيئه متسللا ورائي» .

«يبدو الأمر كما لو أن رسّامًا سبقني ورسم الصورة نفسها أينما استراحت عيني ، سواء نظرت إلى السماء أو إلى الأرض ، لا أرى شيئًا البتة سوى تلك الأفكار وحدها» .

واستمر سير «آرشي» في تفكيره : «يبدو الأمر كما لو أن بنّاء جلس في قلبي ونحت هذا الثقل الشديد نفسه. لا أستطيع أن أرى هذا البنّاء، لكن أثناء الليل والنهار يمكنني أن اسمع طرقات مطرقته كما لو كان يطرق في قلبي ، قائلا : «قلب من حجر ، قلب من حجر . والآن ستستسلم . الآن سأشكّل لك همًّا دائمًا» .

كان لسير آرشي صديقان ، هما سير «فيليب» وسير «رينالد» ، اللذان يتبعانه أينما ذهب .. كانا حزينين ، لأنه كان دائمًا مثبطًا ، لا يبهجه شيء.

قد يسألانه :

«ماذا يزعجك؟ ماذا يجعل عينيك تحترقان هكذا؟ ولماذا وجنتاك شديدتا الشحوب؟» .

لم يكن سير «آرشي» يخبرهما بما كان يعذبه ، مفكرًا : «ماذا سيقول رفيقاي عنّي إذا عرفا أنني استسلمت أمام تلك الأفكار الجبانة؟ لن

يطيعاني بعد ذلك إذا اكتشفا عذابي العنيد بسبب عمـل لم يكـن هنـاك محلّ لتفاديه» .

وعندما ظلا يضغطان عليـه ، اضـطر أن يقـول كـي يبعـدهما عـن جوهر الأمر : «يمارس الحظ معي ألعابًا غريبة في هـذه الأيـام .. هنـاك فتاة أنوي أن أفوز بها ، لكنني لا أستطيع الاقـتراب منهـا . هنـاك شيء يقف دائمًا في طريقي» .

عقب سير «رينالد» :

«ربّما لم تكن الفتاة تحبّك؟» .

قال سير «آرشي» :

«أعتقد من غير ريب أن قلبها ميّال إليّ ، لكن هنـاك شيء يرعاهـا ، لذلك لا أستطيع أن أفوز بها» .

ثم بدأ سير «رينالد» وسير «فيليب» يضحكان ، وهما يقولان :

«لا تخش شيئًا ، سوف نحضر لك الفتاة» .

كانت «الزاليل» ، تمشي في ذلك المساء وحـدها عـبر زقـاق ضـيق ، عائدة من عملها .. كانـت متعبـة ، وفكـرت في نفـسها : «هـذه حيـاة صعبة، لا أجد فرحًا فيها .. يثير سـأمي أن أقـف طـوال اليـوم وسـط رائحة السمك القويّة .. يـشعرني بالملـل أن أسـمع النـساء الأخريـات

يضحكن ويمزحن بأصواتهن العنيفة .. يمرضني أن أرى طيور النورس جوعى تطير فوق الموائد محاولة أن تخطف السمك من بين يديّ . آه ، لو يأتي شخص ويأخذني بعيدًا عن هذا المكان! سأتبعه حتى نهاية العالم!» .

حين وصلت «الزاليل» إلى الجزء الأشد إظلامًا من الزقاق ، برز سير رينالد وسير فيليب من بين الظلال، وحيياها قائلين :

«الآنسة «الزاليل» ، لدينا رسالة لك من سير «آرشي» . إنه يرقد مريضًا في الخان ، لكنه يتوق إلى أن يتحدّث معك ، ويرجوك أن تصحبينا إليه».

بدأت «الزاليل» تخشى من أن يكون سير «آرشي» مريضًا بشكل خطير ، واستدارت على الفور ، ماضية مع الشابين الأسكتلنديين الأنيقين ، اللذين كان عليهما أن يحضراها إليه .

مشى سير «رينالد» إلى جانبها، وسير «فيليب» إلى الجانب الآخر .. تبادلا الابتسام ، حين فكّرا بأنه لم يكن هناك أسهل من تضليل «الزاليل» .

كانت «الزاليل» على عجلة شديدة من أمرها ، فكانت تهرول تقريبًا عبر الزقاق ، وكان على سير «فيليب» وسير «رينالد» أن يوسعا من خطوهما حتى يلاحقاها .

لكن بينما كانت «الزاليل» تمضي بتلك العجلة كي تصل إلى الخان ، بدأ شيء يتدحرج أمام قدميها .. بدا كأنّه قد رُمي أمامها ، وكادت أن تتعثر به تقريبًا .

فكرت «الزاليل» : **«ما ذلك الشيء الذي يستمر في التـدحرج أمـام قدميّ ؟ ينبغي أن يكـون حجـرًا ركلتـه مـن الأرض ، وراح يتـدحرج هابطا التلّ»** .

لقد كانت على عجلـة مـن أمرهـا حتـى تـصل إلى سـير «آرشي» ، لدرجة أنها لم ترغب في أن يعوقها ذلك الـشيء، الـذي كـان يتـدحرج أمام قدميها، فركلته جانبًا ، ولكنه سرعـان مـا ارتـد ثانيـة متـدحرجًا أمامها إلى أسفل الزقاق .. كانت «الزاليل» قـد سـمعته عنـدما ركلتـه بعيدًا يرتد مثل قطعة فضة ، ورأته يلمع ويتلألأ . فكرت : **«إنـه لـيس حجرًا عاديًّا . أعتقد أنه عملة فضيّة»** .. كانت في عجلة من أمرها حتى تصل إلى سير «آرشي» ، لدرجة أنها فكرت أنـه لـيس هنـاك داعٍ إلى أن تلتقطه .

لكنها تدحرجت أمام قدميها ثانية بإلحاح ، ففكـرت : **«ستمـضين بشكل أسرع ، إذا انحنيت والتقطتِها .. يمكنك أن تتخلصي منها بعـد ذلك، إذا لم تكن لها قيمة»** .

سأل سير «رينالد» :

« ما هذا الذي عثرت عليه في الطريق ، يا آنسة؟ إنه يـشعّ بياضًـا في ضوء القمر» .

كانوا يمرّون في تلك اللحظة قريبًا من المخازن الكبيرة ، التي يأوي إليها جمهرة الصيادين الأجانب خلال إقامتهم في «مارستراند» .. وكـان هناك فانوس معلق أمام المدخل ، يلقي ضوءًا خافتًا على الشارع .

قال سير «فيليب» ، وهو واقف تحت الضوء :

«دعينا نرَ ماذا وجدتِ يا آنسة» .

دفعت «الزاليل» العملة المعدنية إلى الفانوس ، وما إن سلطت عليها الضوء بصعوبة حتى صاحت :

«إنها من مال هرّ «آرن»! إنني أعرفها جيدًا . إنها من مال هر «آرن»!» ..

سأل سير «رينالد» :

«ماذا تقولين يا آنسة ؟ ما الذي يجعلك تقولين إنها من مال هر«آرن»!؟».

أجابت «الزاليل» :

«إنني أعرف هذه العملة المعدنية ، وغالبًا ما رأيتها في يد هر «آرن» .. نعم ، إنها بالتأكيد من مال هر «آرن»» .

قال سير «فيليب» :

«لا تصيحي بصوت عالٍ ، يا آنستي ، فالناس يسرعون فعلا كي يعرفوا سبب هذه الصيحة العالية» .

لكن «الزاليل» لم تعره اهتمامًا .. رأت أن باب المستودع ما زال مشرعًا ، وقد استعرت نار في منتصف الباحة ، وجلس حولها عدد من الرجال يتحاورون بهدوء ودعة .

أسرعت «الزاليل» إليهم، ممسكة بالعملة المعدنية عاليًا، صائحة:

«أنصتوا إليّ جميعًا، أيها الرجال! أعرف الآن أنّ قتلة هر «آرن» أحياء. انظروا إليّ هنا! لقد وجدت واحدة من عملات هر «آرن» النقدية».

استدار الرجال جميعًا إليها .. رأت «تورارين» بائع السمك المتجوّل جالسًا بينهم .. سألها «تورارين»:

«ما هذا الذي تخبريننا به بكل هذه الضوضاء، يا فتاتي؟ كيف تميّزين نقود هرّ «آرن» عن أي نقود أخرى؟».

أجابت «الزاليل»:

«حسنا ربّما أعرف هذه القطعة الفضية خاصة عن أيّة واحدة أخرى. إنها قديمة وثقيلة وبها كسر عند الحافة، أخبرنا هر «آرن» أنها جاءت منذ زمن ملوك النرويج القدامى، ولم يكن يدفع منها أبدًا، حين كان يحاسب كي يسدد ثمن بضائع».

قال صياد آخر:

«يجب أن تخبرينا الآن، أين عثرت عليها، يا آنسة».

قالت «الزاليل»:

«لقد وجدتها تتدحرج أمامي في الشارع .. لقد سقطت بالتأكيد من أحد القتلة هناك».

قال «توراراين» :

«قد يكون الأمر كما تقولين ، لكن ماذا نستطيع أن نفعل في هذا الأمر؟ لا يمكننا أن نجد القتلة بأمر واحد فقط ، وهو أنهم مشوا في واحد من شوارعنا» .

وافق الصيادون على أن «توراراين» قد تكلم بحكمة ، ورجعوا إلى الاستقرار ثانية حول النار .

قال «توراراين» :

«تعالي معي إلى البيت يا «الزاليل» ، فليست هذه ساعة تتجوّل فيها فتاة في شوارع المدينة» .

عندما قال «توراراين» ذلك ، بحثت «الزاليل» عن رفيقيها . لكن سير «رينالد» وسير «فيليب» كانا قد انسحبا في غفلة منها ، دون أن تلاحظ انصرافهما .

الفصل السادس

في أقبية المدينة

I :

فتحت مدبِّرة أقبية المدينة في «مارستراند» أبواب الحانة ذات صباح، كي تمسح السلالم والمدخل ، فوقع بصرها على فتاة شابة جالسة على إحدى السلالم تنتظرها .. كانت ترتدي ثوبًا رماديًّا طويلاً مربوطًا بحزام عند الوسط .. كان شعرها منسدلاً غير ملفوف أو معقوص ، بل مائل على كلا جانبي وجهها .

عندما انفتح الباب ، هبطت السلالم إلى المدخل ، فبدا للمدبِّرة أنها تتحرّك كما لو أنّها كانت نائمة .. وقد حافظت طوال الوقت على أن يكون رمشا عينيها مسبلين وذراعاها منضغطين قرب جانبيها ، وكلما اقتربت أكثر ازدادت دهشة المدبّرة لهشاشة ونحول تكوينها . كان وجهها جميلاً ، لكنه دقيق واضح ، كما لو كانت مصنوعة من زجاج هشّ .

حين هبطت إلى المدبّرة ، سألتها عمَّا إذا كان هناك أي عمل يمكنها أن تقوم به ، وعرضت خدماتها .. عندئذ فكرت المدبّرة في كلّ زبائنها

المتوحّشين ، الذين اعتادوا أن يجلسوا ويشربوا مشروب الآل والنبيذ في حانتها ، ولم تملك أن تمنع نفسها من الابتسام ، قائلة :

« لا ، ليس هناك مكان هنا لفتاة صغيرة مثلك » .

لم ترفع الفتاة عينيها ، ولم تقم بأية حركة .. لكنها رجتها ثانية أن تضمَّها إلى الخدمة ، فهي لم تكن ترغب في طعام أو أجر ، كما قالت ، بل في أن يكون لها فقط عمل تؤدّيه .

قالت المدبّرة :

« لا ، ولو طلبت ابنتي ما طلبت لكنت رفضت طلبها أيضًا .. أتمنّى أن يكون لك شأن أعظم من مجرّد أن تكوني خادمة هنا » .

صعدت الفتاة السلالم بهدوء لتنصرف ، بينما وقفت المدبّرة تراقبها . كم بدت ضئيلة وعاجزة ، لدرجة أن المرأة أشفقت عليها ، فنادتها ثانية، قائلة :

«إذا ما تجوّلت وحيدة في الشوارع والأزقة ربما تعرضت لمخاطر أعظم من أن تأتي معي .. يمكنك أن تمكثي اليوم عندي ، تغسلين الأكواب ، ثم أرى بعد ذلك ما هو المناسب لك » .

صحبتها المدبّرة إلى حجرة الخزين الصغيرة ، التي اخترعتها خلف حائط الحانة . ولم تكن أكبر من خزانة ، دون أن يكون لها نافذة أو كوّة، بل تضاء فقط بواسطة فتحة صغيرة في الحائط تطل على الغرفة العمومية .

قالت المدبّرة للخادمة :

« قفي اليوم هنا ، واغسلي كلّ الأكواب والأطباق ، التي أمرّرها لـك من خلال الفتحة الصغيرة، ثم أرى إذا ما كنتُ سأبقيك في الخدمة أم لا» .

دخلت الفتاة إلى حجرة الخزين ، وتحرّكت بهدوء شـديد ، لدرجـة أن المدبّرة اعتقدت أنها امرأة ميّتة تهبط إلى قبرها .

وقفت طوال اليوم ، دون أن تتحـدث إلى أحـد ، وبـدون أن تميـل رأسها عبر الفتحة الصغيرة كي تتطلع إلى الجمهور الذي يدخل ويخرج من الحانة ، ودون أن تلمس الطعام الـذي وضـع أمامهـا . لم يـسمعها أحد تحدث قعقعة أثناء الغسيل ، لكنها كلـما مـدّت المـضيفة يـدها إلى الفتحة الصغيرة ، كانت تجد الأكواب والأطباق نظيفـة دون أي بقعـة عليها .. وعندما تناولتها كي ترتِّبها على الموائد ، كانت شديدة البرودة لدرجة أنها قد تسقط الجلد عن أصابعها ، فارتعدت قائلة :

« يبدو الأمر كما لو أنني استلمتها ببرودتها من يدي الموت نفسه » .

II :

ذات يوم ، لم تكن هناك أسماك لتنظيفها على رصيف الميناء ، لـذلك مكثت «الزاليـل» في البيـت ، جلـست أمـام عجلـة الغـزل ، وكانـت وحدها في الكوخ ، بينما تشتعل نار دافئة في المدفأة ، وكان هناك ضـوء كافٍ في الغرفة .. شعرت ، وهي في منتصف عملها ، بنفَس خفيـف ،

كما لو أنّ نسيمًا باردًا قد لفح جبهتها .. رفعت بصرها ورأت الأخت «فوستر» واقفة إلى جوارها .

مدّت «الزاليل» يدها إلى العجلة لتوقفها ، وجلست ساكنة تتطلع إلى الأخت «فوستر» .. كانت خائفة في البداية ، ولكنها سرعان ما فكّرت مع نفسها : «**إنني لن أساوي شيئًا ، إذا ما خفت من أختي «فوستر »، سواء أكانت ميتة أم حيّة ، فإنني ما أزال سعيدة أن أراها** » .

قالت للبنت الميتة :

« **أختي العزيزة ، هل هناك ما ينبغي عليَّ عمله ؟** » .

قالت الأخرى بصوت لم يكن له قوة أو لون :

« **يا أختي «الزاليل» ، إني أعمل في خدمة الحانة ، ولقد جعلتني المدبّرة أقف وأغسل الأكواب والأطباق طوال اليوم .. والآن ، جاء المساء ، وأصبحت شديدة التعب بحيث لا يمكنني الاستمرار أكثر من ذلك ، وقد جئت إلى هنا كي أسألك العون** » .

حين سمعت «الزاليل» ذلك ، بدا الأمر كما لو أن حجابًا قد أزيل عن وعيها .. لم يعد في مكنتها أن تفكّر أو تتعجب أو تشعر أو تخاف.. لقد عرفت الفرح فقط لرؤية أختها «فوستر» ثانية ، فأجابت :

« **نعم ، أيتها الأخت العزيزة ، سآتي فورًا وأساعدك** » .

عندئذ ذهبت الفتاة الميتة إلى الباب وتبعتها «الزاليل» .. لكن بينما كانتا واقفتين على العتبة ، صمتت الفتاة لوهلة ، ثم قالت لـ «الزاليل»:

« **يجب أن ترتدي عباءة ، لأنّ ريحًا قوية ستهبّ هناك بالخارج** » .

وبينما كانت تقول ذلك ، ازداد صوتها وضوحًا وأصبح أقـلّ تكـتّمًا عمّا قبل .

حينئذ تناولت «الزاليل» عباءتها من الحائط ولفّتهـا حـول نفـسها ، مفكرة في نفسها : « **ما تزال أختي «فوسـتر» تحبّنـي .. إنهـا لا تريـد بي شرًّا. إنني سعيدة فقط أن أمضي معها أينما شاءت** » .

ثم تبعت الفتاة الميتة عبر عدّة شوارع ، على امتداد الطريق من كوخ «توررارين» ، الذي ينتصب على منحنى صخري ، إلى الشوارع المستوية حول الميناء وموضع السوق .

كانت الفتاة الميتة تمشي في المقدمة دائمًا سابقة لـ «الزاليل» بخطوتين. هبّت عاصفة عنيفة ذلك المساء ، مزمجـرة عـبر الـشوارع ، ولاحظـت «الزاليل» أنّه كلما كادت أن تدفعها عصفة ريح عنيفـة باتجـاه الحـائط ، كانت الفتاة الميتة تضع نفسها بينها وبين الريح وتحجبها عنها بقـدر مـا يستطيع جسدها النحيل .

حين وصلا أخيرًا إلى مبنى المدينة العام ، هبطت الفتاة الميتـة سـلالم القبو ، داعية «الزاليل» أن تتبعها .. لكن بينما كانتا تمضيان إلى أسـفل ، أطفأت الريح ضوء الفانوس المعلق في المدخل ، فأصـبحتا في ظـلام . عندئذ لم تعرف «الزاليل» أين تتحرك ، فوضعت الفتاة الميتة يدها عـلى يدها كي تقودها .. لكن يد الفتاة الميتة كانت شديدة البرودة لدرجة أن «الزاليل» أجفلت وبدأت تهتزّ من الخوف .. عندئذ أبعدت الفتاة الميتة يدها ، ولفتها في ركن من عباءة «الزاليل» قبل أن تقودها ثانيـة . لكـن

«الزاليل» شعرت برعشة ثلجية، على الرغم من أنَّ ملابسها كانت من الفرو والكتان .

بعد ذلك ، قادت الفتاة الميتة «الزاليل» عبر ممرّ طويل ، وفتحت لها بابًا . كانتا قد وصلتا إلى حجرة الخزين المظلمة الصغيرة ، التي يتسلل إليها ضوء ضعيف من فتحة صغيرة في الحائط . رأت «الزاليل» أنها في حجرة غسيل الأطباق حيث ينبغي أن تقف خادمة تنظف الأكواب والأطباق للمدبّرة ، حتى ترتبها على الموائد من أجل زبائنها .

رأت «الزاليل» عندئذ فقط دلو ماء ينتصب على كرسي ، وكان في فتحة الحجرة عدّة أكواب وكؤوس تحتاج إلى شطف .

قالت الفتاة الميتة :

« هل ستساعدينني في هذا العمل الليلة ، يا «الزاليل» ؟ » .

عندئذ خلعت «الزاليل» عباءتها ، وشمّرت أكمامها ، وبدأت العمل.

قالت الفتاة :

« هل يمكن أن تكوني هادئة تمامًا وصامتة يا «الزاليل» ، حتى لا تعرف المدبّرة أنني حصلت على مساعدة » .

قالت «الزاليل» :

« نعم ، يا أختي العزيزة ، تأكدي من أنني سأفعل ذلك » .

عندئذ ، قالت الفتاة الميتة :

« إذًا وداعًا يا «الزاليل» .. هناك شيء آخر أسألك إيّاه ، وهو ألّا تكوني شديدة الغضب مني بسبب ذلك » .

قالت «الزاليل» :

« ما الذي يدعوك إلى أن تودّعيني ، لأنني سآتي كل مساء سعيدة لأعاونك » .

قالت الفتاة الميتة :

« لا ليس هناك ما يدعو إلى عودتك بعد هذا المساء ؛ لأن لديّ أملاً كبيرًا حين تمدّين لي يد العون الليلة ، أن تنتهي مهمتي » .

بينما كانتا تتحدثان ، كانت «الزاليل» قد انكبت فعلاً على عملها . استمر الأمر لوهلة ، لكنها شعرت بنفَس خفيف على جبهتها ، مثلما حدث حين اقتربت منها الفتاة الميتة في كوخ «توررارين» .. رفعت بصرها ، فرأت أنها وحيدة . عندئذٍ ، عرفت ما شعرت به مثل نسيم عليل على وجهها ، وقالت لنفسها : « **لقد قبّلت أختي العزيزة «فوستر» جبهتي قبل أن تغادرني** » .

عادت «الزاليل» الآن إلى عملها وأنهته .. شطفت كلّ الأوعية والأباريق وجففتها .. ثم نظرت إلى الفتحة الصغيرة ، بحثًا عن أيّ أدوات أخرى موضوعة هناك ، ولم تجد شيئًا ، فوقفت أمام الفتحة الصغيرة ، وأطلّت على البار .

عادة ، يوجد عدد قليل من الزبائن في الأقبية في مثل تلك الساعة من اليوم .. لم يكن هناك أيّ من السقاة في الحجرة ، والمدبّرة غائبة عن البار . كان المكان خاليًا ، جلس بداخله ثلاثة رجال عند نهاية مائدة

طويلة .. كانوا نزلاء ، ولكنهم بدوا علـى راحـتهم تمامًـا ، لأنَّ واحـدًا منهم كان قد أنهى إبريقه ، وذهب إلى البار ، وملأه مـن أحـد براميـل الآل والنبيذ المرصوصة هناك ، وجلس ثانية ليشرب .

شعرت «الزاليل» ، كما لو أنها جاءت هنا من عالم غريـب .. كانـت خواطرها مع أختها الميتة «فوسـتر» ، ولم تـستوعب جيـدًا مـا رأتـه .. استغرق الأمر فترة طويلة، قبل أن تنتبه إلى أن الرجال الثلاثة الجالسين إلى المائدة كانوا معروفين جيدًا لها وأعزّاء عليهـا .. لم يكـن الجالـسون هناك سوى سير «آرشي» وصديقيه سير «رينالد» وسير «فيليب» .

كانت قد مرّت عدّة أيام ، لم يزر سـير آرشي فيهـا الزاليـل ، لـذلك كانت سعيدة أن تراه . وكانت على وشك أن تخـبره أنهـا كانـت هنـاك قريبة منه ، لكنها سرعان ما راودها هاجس ، كم كان غريبًا توقّفه عـن زيارتها ؟! لذلك ظلت صامتة ، وفكرت : «**ربّما تحوّل هواه إلى أخرى، وربّما أصبح يفكر فيها** » .

كان سير «آرشي» قد انزوى جانبًا عن صديقيه .. كان صامتًا يحملق بثبات أمامه ، دون أن يمسّ شرابه .. لم يشارك في الحديث ، وحين كان صديقاه يوجهان إليه كلمة ، فنادرًا ما كان يجتهد في أن يجيب عنها .

سمعت «الزاليل» صـديقيه ، وهمـا يحـاولان أن يبثّـا فيـه الحيـاة .. سألاه عن السبب في ترك الشراب ، بل وحتى فكرا في أن يقنعـاه بأنـه ينبغي أن يذهب ويتحدث مع «الزاليل» ، كي يستعيد طيّب دعابته .

قال سير «آرشي» :

«يجب ألاَّ توليانى أيّ اهتمام ، لأنَّ هناك شيئًا آخر يملأ علَيَّ كياني ، فما زلت أراها أمامي وما زلت أسمع صوتها في أذنيّ » .

عندئذ رأت «الزاليل» أن سير «آرشي» كان يحملق في أحد الأعمدة الضخمة ، التي تدعم سقف القبو . رأت أيضًا ، ذلك الذي لم تلاحظه حتى تلك اللحظة ، وهو أن أختها «فوستر» تقف إلى جوار عمود منعمة النظر إلى سير «آرشي» . كانت قد وقفت هناك ساكنة دون حراك في ردائها الرمادي ، ولم يكن من السهل اكتشافها ، لأنّها وقفت قريبًا جدًّا من العمود .

وقفت «الزاليل» هادئة تنعم النظر إلى الحجرة ، فلاحظت أنَّ الأخت «فوستر» أبقت عينيها مرفوعتين ، وهي تنعم النظر إلى سير «آرشي» . لقد كانت طوال الوقت ، الذي كانت فيه مع «الزاليل» ، تمشي وعيناها منكستان إلى الأرض .

كانت عيناها الآن هما الشيء الوحيد الذي كان مروعًا فيها . رأت «الزاليل» أنّهما كانتا معتمتين ومغشيتين .. لم تكونا تنظران ، ولم يعد الضوء ينعكس خلالهما .. بعد وهلة ، بدأ سير «آرشي» ينتحب :

« إنني أراها كلّ ساعة ، فهي تتبعني أينما أذهب » .

جلس ووجهه باتجاه العمود ، حيث وقفت الفتاة الميتة ، محملقًا إليها . ولكن «الزاليل» كانت متأكدة من أنه لم يرها .. لم تكن هي من تكلم عنها، بل عن تلك الأخرى ، التي كانت دائمًا في أفكاره .

لم تترك «الزاليل» الفتحة الصغيرة ، وتتبعت عيناها كلّ ما يحدث مفكّرة في أن أهمّ ما ترغب فيه، هو أن تكتشف من التي تربعت فوق عرش مشاعر سير «آرشي» .

فجأة لاحظت أن الفتاة الميتة قد احتلت مكانًا على المقعد المجاور لسير «آرشي» ، وراحت تهمس في أذنه .. لكن سير «آرشي» إلى الآن لا يعلم بوجودها قريبًا جدًّا منه ولا يعلم بهمسها في أذنه .. كان معنيًّا فقط بحضورها وسط فزع مميت يهيمن عليه .

رأت «الزاليل» أنَّ الفتاة الميتة حين جلست تهمس لسير «آرشي» لعدّة دقائق ، أخفى وجهه بين يديه وبكى ، قائلاً :

« يا للحسرة ، لن أجد الفتاة أبدًا ، إنني لم آسف على شيء أبدًا ، مثل أسفي على عدم تركي الفتاة تمضي حين رجتني » .

توقف الأسكتلنديان الآخران عن الشراب ، ونظرا إلى سير «آرشي» محذرين ، لكنه نحّى جانبًا كلّ شجاعته وجنح إلى الندم .. كانا مرتبكين لفترة ، لكن أحدهما سرعان ما نهض إلى البار ، وتناول أكبر إبريق كان هناك وملأه بالنبيذ الأحمر ، وأحضره إلى سير «أرشي» ، وناوله إياه وهو يربت على كتفه ، قائلاً :

« اشرب يا أخي ! فلم ينفد بعد مخزون هر «آرن» . وطالما كان لدينا مال لشراء نبيذ كهذا ، فلن يشغلنا أيّ شيء آخر » .

لكن في اللحظة نفسها ، بينما كانت تقال هـذه الكلـمات : « اشرب يا أخي ! فلم ينفد بعد مخزون هر «آرن» . وطالما كان لدينا مال لـشراء نبيذ كهذا ، فلن يشغلنا أيّ شيء آخر » ، رأت «الزاليـل» الفتـاةَ الميتـة تنهض من المقعد ، وتتلاشى .. كـما اسـتعادت «الزاليـل» في اللحظـة نفسها أيضًا أمام عينيها ثلاثة رجال بلحى عظيمة ومعاطف خشنة من الجلد ، يتصارعون مع خدم هرّ «آرن» ، وأصبح واضحًا لها الآن أنهـم كانوا هم أولئك الثلاثـة ، الـذين يجلـسون في القبـو : سـير «آرشي» ، وسير «فيليب» ، وسير «رينالد» .

III :

خرجت الزاليل من حجرة الخزين ، حيث وقفت وغسلت أكواب المدبّرة ، وأغلقت الباب برقة وراءها .. وقفت دون أن تتحرك في الممرّ الضيّق بالخارج ، مستندة إلى الحائط لما يقـرب مـن سـاعة . وانـساب تفكيرها وهي تقف هناك « إنني لا أستطيع أن أفشي سرّه . ليكن مذنبًا بأيّ شرّ ارتكبه ، لكنني أحبّه بجماع قلبي ، ولا أسـتطيع أن أرسـله إلى حتفه على العجلة(*) .. لا يمكننـي أن أراهـم يواصـلون إحـراق يديـه وقدميه» .

(*) العجلة : آلة تعذيب من القرون الوسـطى ، كـان يقيّـد بهـا الـضحية مـن أطرافـه الأربعة، ثم تكسّر أطرافه بعمود معدني ، أو تحرق أطرافه عليها .

أصبحت العاصفة التي ثارت طوال اليوم ، أكثر ضراوة مع حلول المساء ، وأمكن لـ «الزاليل» أن تسمع زئيرها، وهي واقفة هناك وسط الظلام . وعادت ثانية إلى التفكير: « ها قد وصلَتْ أولى عواصف الربيع . والآن ، سيُحَل كل شيء ، ويذوب الجليد وتتحرر المياه . سيكون لدينا خلال عدّة أيام بحر مفتوح ، وعندها سيبحر سير آرشي من هنا ، ولن يعود ثانية أبدًا . لن يكون هناك مزيد من ارتكاب الأفعال السيئة على هذه الأرض . لكن ماذا سيفيد إذا ما أخذوه وعانى بسبب جريمته ؟ لن يرتاح الموتى أو الأحياء من ذلك » .

لفّت «الزاليل» العباءة حولها ، وفكرت أن بإمكانها أن تعود إلى بيتها وتجلس إلى عملها دون أن تفشي سرّها إلى أيّ فرد .

لكن قبل أن ترفع قدمها كي تمضي ، غيّرت رأيها وبقيت .

ما زالت واقفة تنصت إلى زئير العاصفة ، وفكّرت مرّة أخرى في مقدم الربيع ، وأن الجليد سيختفي ، وترتدي الأرض ثوبها الأخضر . عندئذ فكرت : « يا للسماء الرحيمة ، أيّ ربيع سيكون هو بالنسبة لي لا يمكن لفرح أو سعادة أن تزدهر بعد ارتعاشات الشتاء » .

وسرعان ما عاودتها الذكريات : « كم كنت سعيدة منذ أكثر من عام، حين مضى الشتاء وجاء الربيع . أتذكّر ذات مساء ، كان جميلاً لدرجة أنني لم أستطع أن أجلس محبوسة بالدار ، لذلك تناولت يد الأخت «فوستر» ، وخرجنا سويًّا إلى الحقول ، كي نجلب أغصانًا خضراء نغذي بها الموقد » .

استعادت ذكرى كيف أنَّهما، هي والأخت «فوستر»، تنزّها على امتداد طريق أخضر. وهناك في جانب من الطريق، رأيا شجرة بتولا يافعة، تمّ بترها وأظهر الخشب المبتور أنها قد بترت منذ عدَّة أيام فقط. لكنهما رأيا الآن أن الشجرة المبتورة قد بدأت أوراقها تورق وتتفتح براعمها من جديد.

عندئذ توقفت الأخت «فوستر»، وانحنت فوق الشجرة، قائلة:

« آه، يا للشجرة المسكينة، أيّ إثم ارتكبت، حين لم تعانِ الموت، على الرغم من أنك بترت؟ وما الذي جعلك تنتجين أوراقًا كما لو كنت ما زلت حيّة؟ ».

ضحكت «الزاليل» من كلماتها، وأجابت:

« ربما تنمو شديدة الخضرة والجمال، حتى يرى من بترها مدى الأذى الذي ارتكبه ويشعر بالندم ».

لكن الأخت «فوستر» لم تضحك معها، بل كانت هناك دموع في عينيها:

« إنه لأمر مرير لرجل ميت، إذا لم يستطع الراحة في قبره.. لدى هؤلاء الذين ماتوا راحة صغيرة ينشدونها، فلا الحب أو السعادة يمكن أن يصل إليهم. كل ما يرغبون فيه من خير هو أن يتركوا كي يناموا بسلام. حسنًا، هل أبكي حين تقولين إن شجرة البتولا تلك لا يمكنها الموت بسبب التفكير في قتلتها.. إنَّ أصعب مصير لمن حرم

من حياته ، هو ألاَّ يمكنه النوم في راحة ، بـل ينبغـي أن يطـارد قتلتـه . ليس على الموتى أن يتوقوا إلى شيء، عدا أن يتركوا ليناموا في سلام » .

حين استعادت «الزاليل» تلـك الكلـمات ، بـدأت تبكـي وتعتـصر يديها ، وقالت :

« لن تجد أختي «فوستر» الراحة في قبـرها ، مـا لم أفشِ سرّ محبوبي . إذا لم أساعدها في ذلك ، فستظل تتجـوَّل فـوق الأرض دون إبطـاء أو استرخاء . يا لأختي المسكينة «فوستر» ، ليس لديها ما تنشده سـوى أن تجد سلامًا في قبرها ، وهو ما لا يمكنني تحقيقه لها إذا لم أرسـل الرجـل الذي أحبُّه كي يدمر على العجلة » .

IV :

خرج سير «آرشي» من البـار ، ومـضى عـبر الممـر الطويـل .. كـان الفانوس المعلق من السطح قـد أضيء الآن ثانيـة ، ورأى عـلى ضـوئه الفتاة الخادمة تقف مائلة أمام الحائط .

كانت شديدة الشحوب ، ثابتة الوقفة لدرجة أن سير «آرشي» كـان خائفًا ، وفكر : **« ها هي أخيرًا ، الفتاة الميتة التي تطاردني كل يوم تقف أمام عينيَّ » .**

عندما عبر سير «آرشي» «الزاليل» ، مدّ يده إلى يدها كـي يتأكـد ممّـا إذا كانت الواقفة هناك، هي فعلاً الفتاة الميتة . كانت يـدها شـديدة الـبرودة، لدرجة أنه لم يستطع أن يقول ما إذا كانت تنتمي إلى الأحياء أم إلى الموتى .

لكن «الزاليل» سرعان ما سحبت يـدها ، بيـنما كـان سـير «آرشي» يلمسها، ومن ثم عرفها سير «آرشي» ثانية ، واعتقد أنها قد جـاءت إلى هنا من أجل خاطره ، وكم كـان فرحـه لرؤيتهـا عظـيمًا . لكـن فكـرة راودته « **الآن أعرف ما يجب عليَّ أن أقوم به ، حتـى تهـدأ الفتـاة الميتـة وتتوقف عن مطاردتي** » .

تناول يدي «الزاليل» بين يديه ، ورفعهما إلى شفتيه ، قائلاً :

« **ليبارك الله مجيئك الآن هذا المساء ، يا «الزاليل»** » .

لكن قلب «الزاليل» كان حزينًـا بـشدَّة ، فلـم تـستطع أن تـتكلم ، لتخبر سير «أرشي» بأنها لم تأتِ هنا لتقابله ؛ بسبب دموعها التي كانت تنهمر بغزارة .

وقف سير «آرشي» لفترة طويلة ، لكنه كان يمسك بيديها بـين يديـه طوال الوقت .. وكلما طال وقوفه هكذا ، وضحت وسامته أكثر .

قال سير «آرشي» ، متكلمًا بشكل جدّي :

« **لم أكن قادرًا عـلى أن أراك لعـدّة أيـام يـا «الزاليـل» ، لأنَّ أفكـارًا خطيرة عذبتني ، ولم تترك لي أيّ سلام ، وأعتقد أنني سرعان ما سأفقد عقلي . لكن الليلة تحسّن الأمر معي، ولم أعد أرى أمامي الـصورة التـي عذبتني. وحين وجدتك هنا ، أخبرني قلبي بما ينبغـي عـليّ عملـه كـي أتخلّص من العذاب نهائيًا** » .



انحنى كي ينظر إلى عيني «الزاليل» ، بينما كانت واقفة وقد انخفض جفنا عينيها ، واستطرد قائلاً :

« أنت غاضبة منّي يا «الزاليل» ، لأنني لم أرك لعدّة أيام .. لكنني لم أستطع المجيء ، لأنني حين أراك كنت أتذكر ربَّما بشكل أكبر ما يعذبني . حين أراك ، أجبر على التفكير ربّما بشكل أكبر بفتاة شابة ارتكبت خطأ بحقها .. كم أخطأت بحق آخرين خلال حياتي يا «الزاليل»، لكن ضميري لم يزعجني البتة إلّا بسبب ما ارتكبته مع هذه الفتاة الشابة » .

حين لم تقل «الزاليل» شيئًا ، تناول يديها ثانية ، ورفعها إلى شفتيه وقبلها ، وهو يقول :

« أنصتي الآن يا «الزاليل» لما قاله قلبي لي، حين رأيتك واقفة هنا تنتظرينني » .

ثم استطرد « لقد أنزلت ظلمًا بفتاة ، فجعلتها تعاني لما فعلت ، وهو ما يوجب عليَّ أن أكفِّر عما فعلت معها ، مع أخرى أتخذها زوجة ، وأكون طيبًا معها، حتى أنها لن تعرف الحزن معي أبدًا. وبمثل هذا الإخلاص ، الذي سأبديه لها ، سيكون حبّك يوم مماتك أعظم ممّا كان عليه يوم حفل زفافك » .

وقفت «الزاليل» ساكنة ، منكّسة العينين ، كما كانت من قبل .. ثم مدّ سير «آرشي» يده إلى رأسها ورفع وجهها ، قائلاً :

« ينبغي أن تخبريني يا «الزاليل» ، إذا ما كنت تسمعين ما أقول » .

حينئذ رأى أن «الزاليل» كانت تبكي بعنف ، حتى أن الدموع انسابت عبر وجنتيها .

تساءل سير «آرشي» :

« لماذا تبكين ؟ » .

أجابت :

« أبكي ، يا سير «آرشي» ، لأنني أكنّ لك في قلبي حبًّا عظيمًا » .

عندها اقترب سير «آرشي» أكثر من «الزاليل» ، ووضع ذراعه حولها ، قائلاً :

« هل تسمعين الريح وهي تعصف في الخارج ؟ ذلك يعني أنَّ الجليد سرعان ما ينقشع ، وتصبح السفن حرّة مرة أخرى في أن تبحر إلى أرض موطني .. أخبريني الآن ، يا «الزاليل» ، هل تأتين معي كي أصنع خيرًا لك عوضًا عن الشر الذي فعلته مع أخرى ؟ » .

استمر سير «آرشي» يهمس لـ «الزاليل» عن الحياة المجيدة التي تنتظرها، لكن هاجسًا بدأ يلحّ عليها ثانية ، ففكرت « **يا للحسرة ، لو كنت فقط لم أعرف الشرّ الذي ارتكبه ! إذًا لمضيت معه وعشت سعيدة**» .

اقترب سير «آرشي» منها أكثر وأكثر ، وحين رفعت «الزاليل» بصرها ، رأت وجهه ينحني عليها ، وكان على وشك أن يقبلها على

جبهتها . عندئذ تذكرت الفتاة الميتة التي كانت مؤخرًا معها وقبلتهـا ، فأفلتت منه ، وهي تقول :

« لا ، يا سير «أرشي» ، لن أذهب معك أبدًا » .

قال سير «آرشي» :

«بل، نعـم. ينبغـي أن تـأتي معـي، يـا «الزاليـل»، وإلاَّ سـأنتهي إلى دماري».

وبدأ يهمس للفتاة برقة غير مسبوقة ، وهو ما جعلها تعيـد التفكـير في نفسها : **« أليس الأكثر سرورًا لله وللبشر أن يـسمحوا لـه أن يكفـر عن حياة شريرة ، ليصبح رجـلاً شريفًـا ؟ ومـن الـذي سيـستفيد ، إذا عوقب بالموت ؟ »** .

بينما كانت هذه الخواطر تراود ذهـن «الزاليـل» ، تقـدم رجـلان في طريقهما إلى البار . حين لاحظ سير «آرشي» الفـضول في نظـراتهما إليـه وإلى الفتاة ، قال لها :

« تعالي يا «الزاليل» ، سأصحبك إلى البيت .. لن أسمح أن يظنّ أيّ فرد أنك جئت إلى البار لتريني » .

عندها تذكرت «الزاليل» ، كما لو أن ذهنها استعاد فجـأة مـا عليهـا من واجب آخر يجب أن تؤديه ، بـدلاً مـن الإنـصات لـسير «آرشي» . لكن قلبها نبض بقوة ، حين فكرت في إفشاء سرّ جريمته .. قال قلبها : **« إذا فكرت في تسليمه للجلاد ، فإنَّ ذلك سيحطمني » .**

أحكم سير «آرشي» العباءة حولها، وقادها إلى الطريق .. مشى معها طوال الطريق إلى كوخ توررارين، ولاحظت أنه كلما هبّت العاصفة بشدّة في وجهيهما، كان يضع نفسه أمامها ويحجبها عنها .

فكرت «الزاليل»، طوال الوقت الذي كانا يتمشيان فيه « لم تعرف أختي الميتة «فوستر» أيّ شيء عن هذا، وأنه سيكفر عن جريمته ليصبح إنسانًا طيبًا » .

ما زال سير «آرشي» يهمس بأرقِّ الكلمات في أذن «الزاليل»، وكلما طال وقت إنصاتها له، ازدادت ثقتها فيه .

فكَّرت « لا بد أن يحدث ذلك، إذ كلما سمعت سير «آرشي» يهمس بمثل هذه الكلمات في أذني أستحضر أختي «فوستر» . إنَّها تحبني كثيرًا جدًّا . إنَّها لا ترغب في تعاستي، بل في سعادتي » .

وتوقفا أمام الكوخ، وسأل سير «آرشي» «الزاليل» مرّة أخرى عمّا إذا كانت ترغب في الذهاب معه إلى البحر، فأجابت «الزاليل»، بأنَّها بعون من الله ستذهب .

الفصل السابع

دون راحة

توقفت العاصفة في اليوم التالي .. أصبح الطقس معتدلاً ، وتسبب في انكماش صغير للجليد ، بينما ظلَّ البحر مغلقًا كما كان .

حين استيقظت «الزاليل» في الصباح ، فكرت : « **من الأفضل بالتأكيد أن يتوب إنسان شرير ويعيش طبقًا لأوامر الربّ ، بدلاً من أن يعاقب بالموت** » .

أرسل السير «آرشي» ، في ذلك اليوم ، رسولاً إلى «الزاليل» ، أهداها معه سوارًا ثقيلاً من الذهب يلبس كحلية أعلى الذراع . أسعد السير «آرشي» «الزاليل» ، لأنه فكر فيما يسرّها ، وشكرت الرسول وقبلت الهدية.

لكن حين رحل الرسول ، فكرت في أنّ هذا السوار قد اشتري لها من أموال هرّ «آرن» . وحين فكرت في ذلك ، لم تحتمل النظر إليه ، فخلعته من ذراعها ، ورمته بعيدًا .



عندئذ راودتها أفكـار : « كيـف سـتكون حيـاتي ، إذا كـان عـلي أن أستدعي إلى ذهني دائمًا أنني أعيش من أموال هرّ «آرن» ، حتـى إذا مـا ملأت فمي مـن طعـام ، ينبغـي أن أفكـر في الأمـوال المـسروقة ؟ وإذا حصلت على قرط جديد ، لن أضعه في أذنيّ ، لأنّه تمّ شراؤه من ذهـب مسروق ؟ لقد انتهيت أخيرًا ، إلى أن من المستحيل بالنسبة لي أن أمـضي مع سير «آرشي» ، وأضم حياتي إلى حياته . وهذا ما سـأخبره بـه حـين يأتي».

جاء سير آرشي إليها حـين اقـترب المـساء .. كـان في حالـة نفـسية بهيجة، ولم تكن تزعجه أفكار شريرة ، بعد أن آمن أن ذلـك يرجـع إلى قسمه بأن يصنع خيرًا لفتاة بدلاً من الخطأ الذي ارتكبه مع أخرى .

حين رأته «الزاليل» ، وسمعته يتحدث ، لم تـستطع أن تجـبر نفـسها على أن تخبره بـأنّ قلبهـا حـزين ، وأنهـا ستنفـصل عنـه . كانـت كـل أحزانها، التي ضايقتها قد نسيت ، حين جلست تنصت إليه .

ذهبت «الزاليل» في يـوم الأحـد التـالي إلى الكنيـسة . وكانـت قـد ذهبت إلى هناك في الصباح وفي المساء، وبينما جلـست خـلال الـصلاة الصباحية منصتة إلى الموعظة ، سمعت شخصًا يبكي وينتحب بالقرب منها ، فظنّت أنه شخص يجلس إلى جوارها في المقعد ، ولكن أينما ولّت وجهها إلى اليمين أو إلى اليسار ، لم ترَ أحدًا ، بل هـو هـدوء وخـشوع العابدين فقط .

على الرغم من ذلك ، كانت تسمع بوضوح صوت بكاء ، بدا قريبًا جدًّا منها لدرجة أنها قد تلمس ذلك الشخص بمجرد أن تمدّ يدها فقط .

جلست «الزاليل» منصتة إلى التنهد والنواح ، وفكّرت في نفسها ، بأنها لم تسمع أبدًا صوتًا حزينًا بهذا الشكل ، ثم فكرت ثانية « **من هي تلك الشخصية التي تعاني مثل هذا الحزن العميق ، لدرجة أن تذرف هذه الدموع المريرة ؟** » .

نظرت وراءها ، وانحنت إلى الأمام فوق المقعد التالي كي ترى من تكون.. لكن الجميع كانوا يجلسون في صمت ، ولم يكن بينهم أيّ وجه مبلل بالدموع .

عندئذ فكرت «الزاليل»، بأنه ليس هناك حاجة لأن تسأل أو تتعجب، لأنها قد عرفت فعلاً منذ البداية من تلك التي كانت تبكي جوارها ، فهمست :

« **أختي العزيزة ، لماذا لا تظهرين نفسك لي مثلما فعلت مؤخرًا ؟ لأنك لا بد أن تعرفي بأني سأفعل بسعادة كلّ ما قد يجفف دموعك** » .

أنصتت كي تسمع إجابة ، ولكن لم يأتِ أيّ شيء .. كان كل ما سمعته هو نحيب الفتاة الميتة قريبًا منها . حاولت «الزاليل» أن تصغى لما يقول الواعظ في موعظته ، لكنها تتبعت القليل منها فقط .. وسرعان ما تصاعد غضبها ، فهمست :

« أعرف شخصًا لديه أكثر من سبب كي يبكي أكثر مقارنة بك ، ذلك الشخص هو أنا شخصيًّا . لقد كشفت لي الأخت «فوستر» عن قاتلها ، فجلست هنا بقلب مليء بالفرح » .

كان استياؤها يتصاعد وهي تنصت للبكاء، حتى أنها فكّرت « كيف يمكن أن تطلب أختي «فوستر» الميتة أن أفشي سرّ الرجل الذي أحبّ؟ إنّها لم تكن لتفعل هي نفسها مثل هذا الأمر ، لو كانت حيّة » .

خرست في مقعدها ، لكنها حافظت على هدوئها بصعوبة .. تأرجحت إلى الأمام وإلى الوراء واعتصرت يديها ، مفكّرة وقد راح قلقها يتصاعد « الآن سيصاحبني ما حدث طوال اليوم ، ومن يدري ، ربّما يصاحبني عبر الحياة بأكملها » .

تصاعد النحيب إلى جوارها بشكل أكثر عمقًا وحزنًا ، وأخيرًا مسّ شغاف قلبها على الرغم منها ، فبدأت تبكي هي أيضًا، وهي تفكّر «لابد أن يكون السبب لدى هذه ، التي تبكي بمثل هذا الحزن المرير الثقيل ، هو أنها تتحمل معاناة أثقل ممّا يمكن لبشر أن يحتملها » .

حين انتهت الصلاة ، وخرجت «الزاليل» من الكنيسة ، لم تعد تسمع النحيب . لكنها بكت بنفسها طوال الطريق إلى البيت ، لأنّ أختها «فوستر» لا تجد سلامًا في قبرها .

حين حلّ موعد صلاة المساء ، ذهبت «الزاليل» ثانية إلى الكنيسة ، مدفوعة لأن تعرف ما إذا كانت أختها «فوستر» ما تزال جالسة هناك تبكي .

سمعتها «الزاليل» بمجرد أن دخلت الكنيسة ، فارتعشت روحها حين أدركت صوت النحيب .. شعرت أن قوتها تخونها ، ولم يعد لديها سوى رغبة واحدة ، هي أن تساعد الفتاة الميتة ، التي تتجوّل بين الأحياء ، دون أن تعرف راحة .

حين خرجت «الزاليل» من الكنيسة ، كان ما يزال هناك ضوء كافٍ، لترى أن واحدًا ممن ساروا قبلها قد خلّف وراءه على الثلج آثار أقدام دامية ، ففكرت : « **من يمكن أن يكون مسكينًا هكذا ، لدرجة أن يمضي عاري القدمين مخلّفًا وراءه على الثلج آثار أقدام دامية ؟** » .

بدا أن كل من مشوا قبلها ، كانوا بشرًا أثرياء يرتدون ملابس أنيقة وينتعلون أحذية جيّدة .

لم تكن آثار الأقدام الدامية قديمة العهد .. أمكن لـ «الزاليل» أن ترى أنها كانت لفرد من مجموعة مشت قبلها ، ففكرت « **أرى شخصًا متقرح القدمين من أثر رحلة طويلة.. ليتغمده الله برعايته حتى لا يطيل أمد ذهابه قبل أن يجد مأوى وراحة** » .

كانت لديها رغبة عارمة كي تعرف هويّة ذلك الشخص، الذي قام بهذه الرحلة الطويلة المجهدة ، فتتبعت آثار الأقدام ، على الرغم من أنها قادتها بعيدًا عن بيتها .

لكنها اكتشفت فجأة أن رواد الكنيسة قد مضوا في اتجاه آخر ، وأنها أصبحت وحدها في الشارع ، على الرغم من أن آثار الأقدام الحمراء الدامية كانت هناك واضحة ، كما كانت من قبل .

« إنها آثار أقدام المسكينة أختي «فوستر» ، التي تمضي أمامي » .

هكذا فكرت «الزاليل» ، بل أكدت لنفسها بأنّ ذلك كان هو ما خمنته طوال الوقت .

« يا للحسرة يا أختي المسكينة «فوستر» ، لقد اعتقدت أنك تمضين بخفة على الأرض، لدرجة أنَّ قدميك لا تلمسان الأرض، لكن لا أحد بين الأحياء يمكن أن يعرف كم كانت رحلتك الطويلة مؤلمة » .

نضحت الدموع من عينيها ، وتنهدت :

« ألا يمكن أن تجد سلامًا في قبرها ! ويلي من أنها يجب أن تتجوّل طويلاً هكذا ، حتى تدمى قدماها ! » .

صاحت :

« انتظري ، يا أختي العزيزة «فوستر» ، انتظري ، حتى يمكنني أن أتحدث إليك ! » .

وبينما كانت تصيح، رأت أن آثار الأقدام انسلت مسرعة على الثلج، كما لو أن الفتاة الميتة تسرع في خطوها .

قالت «الزاليل» :

« إنها تهرب ، ولم تعد تنشد العون مني » .

كم جعلتها آثار الأقدام الدامية شديدة الهياج تمامًا ، حتى أنها صرخت :

« يا أختي العزيزة «فوستر» ، سأفعل كل ما تطلبينه مني ، إذا كان ذلك سيجعلك ترتاحين في قبرك ! » .

وحالما تمتمت «الزاليل» بتلك الكلمات ، لحقت بها سيدة طويلة ضخمة البنيان كانت تتبعها ، ووضعت يدها على ذراعها ، وهي تتساءل :

« من تكونين ، يا من تبكين وتعصرين يديك هنا في الشارع ؟ إنك تذكرينني بفتاة جاءتني يوم الجمعة بحثًا عن عمل ، ثم هربت مني ، أو ربّما تكونين أنت هي نفس الفتاة ؟ » .

ردّت «الزاليل» :

« إنني لست هي ، ولكن كما أعتقد ، فأنت مدبّرة أقبية المدينة ، لذلك أقول لك إنني أعرف من هي الفتاة ، التي تتحدثين عنها » .

قالت المضيفة :

« إذًا هل تخبرينني لماذا رحلت ، ولم تعد ثانية ؟ » .

قالت «الزاليل» :

« لقد تركتك، إنها لم تختر أن تسمع حديث مرتكبي الجريمة ، الذين يتجمعون في بارك » .

قالت المضيفة :

« هناك كثير من الرفقاء المتوحشين يأتون إلى باري ، لكن ليس بينهم مرتكبو جريمة » .

قالت «الزاليل» :

« لقد سمعت الخادمة ثلاثة ممن جلسوا هناك يتحدثون مع بعضهم البعض، وقال أحدهم: فلتشرب يا أخي! فإن مخزون هرّ «آرن» لم ينفد بعد».

حين قالت «الزاليل» هذه الكلمات ، فكرت **« لقد ساعدت الآن أختي «فوستر» وحكيت ما سمعت . والآن ، فليساعدني الله حتى لا تهتم هذه المرأة بكلماتي ، لذلك سأنسحب » .**

لكن حين رأت «الزاليل» وجه المدبّرة ، وعرفت أنها قد صدقتها ، أصبحت خائفة وفكرت في الهرب . ولكن قبل أن تتاح لها أيّة فرصة للحركة، كانت يد المدبّرة الثقيلة قد أمسكت بها بثبات، حتى لا تهرب.

قالت المضيفة :

« إذا كان ممكنًا أن تشهدي في البار بمثل هذه الكلمات، التي نطقت يا آنسة ، فإنَّ من الأفضل لك ألاَّ تهربي ، لأنك لا بد أن تمضي معي الآن إلى من يمتلكون السلطة للقبض على القتلة وتقديمهم للعدالة » .

الفصل الثامن

فرار سير «آرشي»

دخلت «الزاليل» إلى البار مطوّقة في عباءتها الطويلة ، ومضت من فورها إلى المائدة التي جلس عليها سير «آرشي» مع صديقيه . كان هناك حشد من الزبائن يجلسون على الموائد في القبو ، لكن «الزاليل» لم تول اهتمامًا لأيّ من النظرات المتعجبة ، التي لاحقتها عندما ذهبت وجلست إلى جانب الرجل الذي أحبته .. كان همّها الوحيد ، هو أن تكون مع سير «آرشي» خلال اللحظات ، التي بقيت له من زمن الحرية .

حين رأى سير «آرشي» أنّ «الزاليل» قد جاءت وجلست إلى جواره، نهض وانتقل معها إلى مائدة تقع بعيدًا في الحجرة مختفية وراء عمود . أمكنها أن ترى أنه لم يكن مسرورًا لمجيئها كي تقابله في مكان، ليس معتادًا للفتيات الشابات أن يظهرن فيه .

قالت «الزاليل» :

« إنني لا أحمل لكِ رسالة طويلة يا سير «آرشي» ، ولكن أودّ أن تعرف أنني لن يمكنني أن أذهب معك إلى وطنك » .

سقط سير «آرشي» في لجّة اليأس ، حين سمع «الزاليل» تتحدث هكذا ، لأنّه كان يخشى إذا ما فقد «الزاليل» ، أن تتملكه الأفكار الشريرة ثانية .

تساءل :

« لماذا لن تذهبي معي ، يا «الزاليل» ؟ » .

كانت «الزاليل» شاحبة كالموتى ، ومشوشّة الأفكار ، لدرجة أنها لم تعرف بأيّة إجابة تجيب ، وأخيرًا قالت :

« إنه أمر محفوف بالمخاطر أن أتبع جنديًا باحثًا عن الثروة ، فلا أحد يمكنه أن يقول ما إذا كان مثل هذا الرجل سيحافظ على وعده بخطبة فتاة » .

دخل رجل ما إلى البار ، قبل أن يكون لدى سير «آرشي» وقت ليعقب ، ومضى فورًا إلى سير «آرشي» ، وأخبره بأن ربّان السفينة الكبيرة، التي ترسو في الجليد خلف «كلوفرو» ، قد أرسله .. وهو يدعوه مع رجليه أن يعدّوا متاعهم ، ويأتوا إلى سطح السفينة هذا المساء ، فقد انطلقت العاصفة ثانية ، وسيتحرر البحر بعيدًا إلى اتجاه الغرب . وربما سيكون من المحتمل أن ينفتح البحر قبل الفجر ، فيمكنهم الإبحار إلى أسكتلندا .

قال سير «آرشي» لـ «الزاليل» :

« هل سمعت ما قاله هذا الرجل .. هل ستأتين معي ؟ » .

أجابت «الزاليل» :

« لا ، لن أذهب معك » .

لكنها كانت سعيدة في أعماق قلبها ، حين فكرت « **سينتهي الأمر الآن ، في أغلب الظن ، بأن يهرب قبل أن تأتي ساعة القبض عليه** » .

نهض سير «آرشي» وانتهى إلى سير «فيليب» وسير «رينالد» ، حيث تحدث معهما في أمر الرسالة ، قائلاً :

« عودا إلى الخان قبلي ، وأعدا كلّ شيء ، فما زال لديَّ كلمة أو كلمتان أودّ أن أقولها لـ «الزاليل» » .

حين رأت «الزاليل» سير «آرشي» راجعًا إليها ، لوّحت بيديها كما لو أنّها تمنعه من العودة ، وهي تقول :

« لماذا رجعت يا سير «آرشي» ؟ لماذا لم تستعجل الهبوط إلى البحر سريعًا بقدر ما تستطيع أن تحملك قدماك ؟ » .

إلى هذه الدرجة كان حبّها لسير «آرشي» . لقد أفشت سرّه حقًّا من أجل خاطر أختها «فوستر» ، لكن رغبتها الأكثر اتِّقادًا كانت أن يهرب .

قال سير «آرشي» :

« لا ، إني أرجوك أولاً مرّة أخرى أن تأتي معي » .

قالت «الزاليل» :

« لكنك تعرف يا سير «آرشي» ، أنني لا أستطيع الذهاب معك » .

تساءل سير «آرشي» :

« لماذا لا تستطيعين ؟ أنت يتيمة مسكينة ، بائسة ، وبلا أصدقاء ، لدرجة أن أحدًا لن يهتم بما يجري لك . لكن إذا جئت معي ، سأجعل منك سيدة نبيلة . إنني رجل ذو سلطة في بلدي . وسترتدين الحرير والذهب ، وستشغلين مكانة مرموقة في بلاط جلالة الملك » .

كانت «الزاليل» ترتعد من نذير تأخيره ، بينما الفرار ما زال متاحًا . كانت تهدئ نفسها بصعوبة بأن تقول :

«اذهب فورًا يا سير «آرشي» يجب ألاَّ تتلكأ أكثر من ذلك لتزعجني».

قال سير «آرشي» ، وقد أصبح صوته أكثر رقة ، وهو يستطرد في حديثه :

« هناك شيء أودّ أن أقوله لك يا «الزاليل» ، حين رأيتك للمرة الأولى، كان همّي الوحيد هو أن أغويك وأخدعك . كان وعدي بالثراء في البداية مجرّد مزحة ، لكن منذ ليلتين أردتك بصدق ، وأصبح هدفي ورغبتي الآن أن تكوني زوجتي . يمكنك أن تثقي بي لأنني رجل نبيل وجندي » .

في تلك اللحظة سمعت «الزاليل» مسيرة رجال مسلحين في الميدان بالخارج ، ففكرت « إذا ذهبت معه الآن فربّما يهرب ، أمّا إذا رفضت

فإنني أقوده إلى هلاكه .. إنه يتلكأ طويلاً هنا من أجلي ، وهو ما يتيح للحرس أن يقبضوا عليه . لكن كيف أذهب مع الرجل الذي قتل كلّ أعزائي ؟ » .

قالت «الزاليل» ، وهي تأمل أن تروّعه كلماتها :

« ألا تسمع وقع أقدام الرجال المسلحين في الميدان ؟ » .

أجابها سير «آرشي» :

« آه ، نعم ، أسمعها ، وأنا لا أشك في أن هناك شجارًا في حانة الجعة . لا تدعي ذلك الأمر يخيفك يا «الزاليل» .. إنه لا يعدو أن يكون بعض صيادي السمك قد قرروا خدش أكوابهم بأظافرهم » .

قالت «الزاليل» :

« سير «آرشي» ، ألا تسمعهم وهم يصطفون أمام مبنى المدينة ؟ » .

كانت «الزاليل» ترتعش من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ، لكن سير «آرشي» لم يلاحظ ذلك فقط ، بل كان شديد الهدوء أيضًا .

قال سير «آرشي» :

« وأين تريدينهم أن يصطفوا أيضًا ؟ إذ لا بد أن يحضروا المتشاجرين ، حتى يطرحوهم بعد ذلك على الأرض من أعقاب أقدامهم في دار الحراسة . لا تنصتي إليهم يا «الزاليل» ، بل أنصتي إلى من يطلب منك أن تصحبيه عبر البحر ! » .

لكــن «الزاليــل» حاولــت مــرة أخــرى أن تبعــث الحــزن في ســير «آرشي»، فقالت :

« سير «آرشي» ، ألا تسمع الحراس يهبطون سلالم القبو ؟ » .

أجاب :

« أوه ، نعم ، أسمعهم ، إنهم سيأتون إلى هنا كي يتجرع كـل مـنهم إناء من الجعة ، طالما أن مساجينهم آمنين في قيودهم . لا تفكري فـيهم يا «الزاليل» ، بل فكري في أنك سـتبحرين غـدًا في البحـر الواسـع إلى أرض وطني ! » .

لكن «الزاليل» كانت شاحبة كجثة ، مصدومة لدرجة أنها تكلمـت بصعوبة ، قائلة :

« سير «آرشي» ، ألا تراهم يتحدثون هناك مع المـدبّرة عنـد البـار ؟ إنهم يسألونها عمّا إذا ما كان أيّ ممن يبحثون عنهم موجودًا بالداخل » .

قال سير «آرشي» :

« أراهن أنهم يوصونها كـي تـدفئهم بـشراب قـوي في هـذه الليلـة العاصفة . لا ينبغي أن ترتعـشي وتهتـزي بهـذه الـشدّة يـا «الزاليـل» . يمكنك أن تتبعينـي دون خـوف . أقـول لـك إن أبي نفـسه لـو أراد أن يزوجني من سيدة نبيلة في وطننا ، لقلت له لا . تعالي معي عـبر البحـر بأمـان كامـل يـا «الزاليـل» ! لا شيء ينتظـرك هنـاك سـوى الفـرح والسعادة» .

احتشد الجنود برماحهم باطراد عند الباب . كانت «الزاليل» الآن مرعوبة تمامًا ، ففكرت « **لا أستطيع أن أنتظر حتى يحضروا ويقبضوا عليه** » .

ثم انحنت باتجاه سير «آرشي» ، وهمست إليه :

« **ألا تسمع يا سير «آرشي» ؟ إنهم يسألون المدبّرة عما إذا كان أي من قتلة هر «آرن» هنا بالداخل ؟** » .

عندئذ ألقى سير «أرشي» نظرة عبر الحجرة ، وتطلع إلى الحراس ، الذين كانوا يتحدثون مع المدبّرة . لكنه لم ينهض ويطر كما توقعت «الزاليل» ، بل انحنى ونظر بعمق إلى عينيها ، متسائلاً :

« **أنت يا «الزاليل» ، التي اكتشفت الأمر وأفشيت سرّي ؟!** » .

قالت «الزاليل» :

« **لقد فعلت ذلك من أجل أختي العزيزة «فوستر» ، حتى تجد سلامًا في قبرها . يعلم الله ما كبّدني هذا الأمر من مشقة . لكن طر الآن يا سير «آرشي» ! ما زال هناك وقت .. لم تغلق كلّ الأبواب والمداخل بعد** » .

قال سير «آرشي» :

« **أنت موطن الداء ! حين رأيتك للمرة الأولى على رصيف الميناء ، فكرت أنه ينبغي عليّ أن أقتلك** » .

وضعت «الزاليل» يدها على ذراعه ، وهي تقول :

« طر الآن ، يا سير «آرشي» ! لا يمكنني أن أظلّ ساكنة وأنا أراهم يأتون وينقضّون عليك .. إذا لم تهرب دوني ، فإنني بإذن الله سأمضي معك . لكن لا تمكث هنا أكثر من ذلك من أجل خاطري ، يا سير «آرشي» ! سأفعل كل ما تطلبه مني ، فقط إذا كنت ستنقذ حياتك » .

أصبح سير «آرشي» الآن شديد الغضب ، وتحدث باحتقار إلى «الزاليل»:

« الآن ، أيتها الفتاة ، لن تمضي أبدًا في حذاء مطرز بالذهب خلال قاعات قصر شامخ .. يمكنك الآن أن تقضي حياتك في «مارستراند» تخرجين أحشاء سمك الرنجة .. لن تزفي أبدًا لرجل يمتلك قصرًا وأرضًا ، يا «الزاليل» . سيكون زوجك صياد سمك فقيرًا، وسيكون سكنك كوخًا على صخرة باردة » .

سألته «الزاليل» :

« ألا تسمع الحراس وهم يصطفون أمام كل الأبواب؛ كي يغلقوا الأبواب برماحهم ؟ لماذا إذن لا تسرع ؟ لماذا لا تهرب على الجليد ، وتخفي نفسك في السفينة ؟ » .

أجاب سير «آرشي» :

« لن أطير ، لأن لديّ فكرة بأن أجلس هنا وأتحدث مع «الزاليل» . هل تعتقدين أن هناك نهاية لكل أفراحك يا «الزاليل» ؟ هل تعتقدين الآن أنّ هناك نهاية لأملي في التكفير عن جريمتي ؟ » .

همست «الزاليل» ، وهي تنهض من مقعدها في رعب :

« سير «آرشي» ، لقد تمركز الآن الحرس جميعًا .. الآن سيمسكون بك ويقبضون عليك فلتسرع وتطر ، سآتي إلى سفينتك يا سير «آرشي»، إذا كنت فقط ستطير » .

قال سير «آرشي» :

« لست في حاجة لأن تخافي يا «الزاليل» ، فقد بقي لنا بعض الوقت لنتحدث فيه معًا .. هؤلاء الأتباع لا يرغبون في أن يهاجموني بعنف هنا ، حيث أستطيع الدفاع عن نفسي .. إنهم يخططون أن ينالوا مني على السلالم الضيقة .. إنهم يفكرون في أن يحاصروني برماحهم الطويلة ، وهذا هو ما تمنيته دائمًا لي ، يا «الزاليل» » .

ولكن كلما اكتسبت «الزاليل» مزيدًا من الرعب ، أصبح سير «آرشي» أكثر هدوءًا .. لم تتوقف أبدًا عن دعوته إلى الهرب ، لكنه كان يسخر دائمًا منها :

« لست في حاجة يا آنستي ، لأن تكوني شديدة التأكد من أن هؤلاء الأتباع يمكنهم القبض عليَّ .. لقد سبق أن تجاوزت مخاطر أعظم من هذا . لكنني أؤكد أنه لن يكون أكثر صعوبة عما كان عليه الأمر منذ شهور في السويد .. كان بعض مشوّهي السمعة قد أخبروا الملك «چون» بأن حرّاسه الأسكتلنديين غير مخلصين له ، وصدقهم الملك ،

ورمى القادة الثلاثة في برج حصين ، ثم أبعد رجالهم عن مملكته ، وحرسهم حتى عبروا الحدود » .

رجته «الزاليل» :

« طر يا سير «آرشي» ، طر ! » .

قال سير «آرشي» ساخرًا :

« لا يجب أن تقلقي من أجلي ، يا «الزاليل» ، سأستعيد نفسي اليوم ثانية ، سأستعيد دعابتي القديمة ، فلم أعد أرى الفتاة الشابة التي طاردتني، وسأتماسك، فلا تخافي.. سأحكي لك عن هؤلاء الثلاثة الذين حبسهم الملك «چون» في برج حصين ، لقد نهبوا الحصن ذات ليلة ، حين كان حرّاسهم سكارى من الخمر ، وهربوا فارين إلى الحدود . ولكن طالما ظلوا في أرض ملك السويد ، كان حتمًا أن يكشفوا أنفسهم ، وهكذا صنعوا لأنفسهم معاطف من جلود خشنة وادعوا أنهم دبّاغين رحّالة يسافرون عبر القطر بحثًا عن عمل » .

الآن لاحظت «الزاليل» كيف تغيّر سير «آرشي» باتجاهها ، وعرفت أنه يكرهها ، منذ أن اكتشف أنها أفشت سرّه .

قالت «الزاليل» :

« لا تتحدث بهذا الشكل يا سير «آرشي» ! » .

قال سير آرشي :

« لماذا تمكرين بي ، بعد أن وثقت بك ؟ لقد عدت الآن ثانية الرجل الذي كنته .. الآن لن أكون رحيمًا مع أحد . والآن سترين ، أن الثروة

ستحميني، كما فعلت حتى الآن . ألم نكن في حالة سيئة ، أنا وزميلاي ، حين سرنا عبر كلّ السويد ، وهبطنا إلى الشاطئ هنا . لم يكن لدينا مال كي نشتري ملابس مشرّفة .. لم يكن لدينا مال للإبحار إلى أسكتلندا .. ولم نجد علاجًا إلاّ بأن نقتحم بيت الكاهن بـ «سولبرجا» » .

رجته «الزاليل» :

« لا تحكي المزيد عن ذلك ! » .

قال سير «آرشي» :

« نعم ، يجب أن تسمعي كل شيء يا «الزاليل» ، هناك شيء واحد لا تعرفينه ، وهو أننا حين دخلنا أولاً إلى البيت ، ذهبنا إلى هرّ «آرن» ، وأيقظناه ، وأخبرناه بأنه ينبغي أن يعطينا مالاً . لو أنه أعطانا المال بإرادته لما آذيناه .. لكن هر «آرن» قاومنا بالقوة ، وهكذا كان علينا أن نطرحه أرضًا ، وحين قتلناه ، كان علينا أن نضع نهاية لكل أهل بيته » .

لم تقاطع «الزاليل» سير «آرشي» أكثر من ذلك ، لكن قلبها بدا باردًا وخاويًا .

ارتعشت وهي تنظر إلى سير «آرشي» ، لأنه بينما كان يتكلم استبدت به نظرة قاسية وحشية .

فكرت «الزاليل» : « ماذا كنت على وشك أن أفعل ؟ هل جننت حتى أحبّ الرجل ، الذي قتل كل أعزائي ؟ فليغفر الله لي خطيئتي!» .

قال سير «آرشي» :

« حين ظننا أن الجميع قد ماتوا ، سحبنا خزانة النقود الثقيلة إلى خارج المنزل ، وأشعلنا نارًا في البيت ، حتى يظنّ الناس أن هر «آرن» قد احترق حيًّا » .

قالت «الزاليل» لنفسها « لقد أحببت ذئب غابات ، وكم حاولت أن أنقذه من العدالة أيضًا ! » .

واستطرد سير «آرشي» :

« وانطلقنا عبر الجليد ، فارّين إلى البحر . لم يكن لدينا أيّ خوف طالما أننا نرى ألسنة اللهب تتصاعد إلى عنان السماء ، لكننا أخذنا حذرنا حين رأينا أنها أطفئت ، فقد أيقنّا أن الجيران قد جاءوا وأطفئوا النار ، وأننا سنكون مطاردين . وهكذا تراجعنا باتجاه الأرض ، لأننا رأينا مخرجًا من خلال مجرى ماء كان الثلج فيه ضعيفًا .. نقلنا الخزانة من الزحافة ، التي قدناها إلى الأمام حتى تكسر الثلج تحت حوافر الحصان ، فتركناه يغرق بعد أن قفزنا جانبًا . لو لم تكوني يا «الزاليل» إلاَّ مجرد فتاة صغيرة ، لرأيت أن ذلك كان فعلاً جسورًا . لقد أبلينا كرجال بلاء حسنًا » .

ظلت «الزاليل» ساكنة ، شاعرة بألم حاد يمزّق نياط قلبها ، لكن سير «آرشي» كان قد كرهها وأبهجه أن يعذبها :

« ثم نزعنا أحزمتنا وربطنا الخزانة وبدأنا نسحبها .. ولكن لأن الخزانة تركت آثارًا على الثلج ، ذهبنا إلى الشاطئ وجمعنا غصينات

شجرة صنوبر ووضعناها أسفل الخزانة . ثم خلعنا أحذيتنا ذات الرقبة، ورجعنا على الثلج دون أن نترك أي أثر وراءنا » .

توقف سير «آرشي» ، كي يلقي نظرة احتقار على «الزاليل» :

« وعلى الرغم من نجاحنا في كل ذلك ، فإننا كنّا في حالة سيئة ، فأينما ذهبنا فإن ملابس القتلة ستفشي سرّنا فيقبض علينا .. لكن أنصتي الآن إليّ يا «الزاليل»، فإنني أحكي لك كل ذلك لتخبري من يطاردوننا كم سيتألمون ، لأنهم يجب أن يعرفوا أننا لسنا من النوع الذي ينال بخفة. أنصتي إلى هذا : بينما كنَّا قادمين على الثلج باتجاه «مارستراند» ، قابلنا زملاءنا وأبناء بلدنا ، والذين منعهم الملك جورج من أرضه . ما زالوا غير قادرين على أن يغادروا «مارستراند» بسبب الجليد ، وقد لبّوا احتياجاتنا ، وأعطونا ملابس .. ومنذ أن أصبحنا نتجوّل في «مارستراند» بحُرّية ، لم يعد هناك أيّ خطر . وليس هناك أيّ خطر يتهددنا الآن ، لولا أنك أصبحت غير مخلصة ومكرت بي » .

ظلت «الزاليل» ساكنة .. كان ذلك حزنًا شديد الوطأة عليها .. شعرت بدقات قلبها بصعوبة .

انتفض سير «آرشي» ، وصاح :

« ولن يعوقنا الآن أي خطر أيضًا، وستكونين خير شاهد على ذلك، يا «الزاليل» ! » .

وفي لحظة أمسك «الزاليل» بين ذراعيه ، ورفعها لأعلى ، جاعلاً منها درعًا أمامه ، وهو يهرول عبر البار إلى العتبة ، فصوّب الحراس الذين تمركزوا لحراسة الباب حرابهم الطويلة إليه ، لكنهم لم يجرءوا على استخدامها خشية إيذاء «الزاليل» .

حين وصل سير «آرشي» إلى السلم الضيق والمدخل ، أمسك بـ «الزاليل» أمامه بالأسلوب بنفسه السابق فحمته أفضل من أقوى الدروع ، لأن الحرّاس المنتصبين هناك لم يتمكنوا من استخدام أسلحتهم ، وهكذا شقّ طريقه لأعلى السلالم بشكل طيب ، وأمكن لـ «الزاليل» أن تشعر بالهواء الطلق الذي تطلقه السماء من حولها .

كان حب «الزاليل» لسير «آرشي» قد تغيّر إلى كراهية مميتة ، وكان تفكيرها الوحيد هو أنه كان شريرًا وقاتلاً . وحين رأت أن جسمها يحميه كدرع ، لدرجة أنه كان على وشك الهرب ، مدَّت يدها ، وأمسكت بواحدة من حراب الحراس ، وصوبتها إلى قلبها ، وهي تفكر « **الآن سأخدم أختي «فوستر» ، حتى تكون المهمة قد أنجزت أخيرًا** » وفي الخطوة التالية ، التي صعد فيها سير «آرشي» السلالم ، دخلت الحربة إلى قلب «الزاليل» .

كان سير «آرشي» ، عندئذ ، على قمة الدرج ، حيث تراجع الحراس بعيدًا بعد أن رأوا أن أحدهم قد آذى الفتاة ، فجرى الرجل عبرهم . وحين خرج سير «آرشي» إلى موقع السوق سمع صيحة الحرب

الأسكتلندية من أحد الأزقة : « النجدة ! النجدة ! من أجل أسكتلندا!
من أجل أسكتلندا ! » .

كان سير «فيليب» وسير «رينالد» ، ضمن حشد الأسكتلنديين ، الذين جاءوا ليحرروه .. جرى سير آرشي باتجاههم ، صارخًا بصوت مرتفع :

« اقتربوا مني ! من أجل أسكتلندا ! من أجل أسكتلندا ! » .

الفصل التاسع

فوق الجليد

كان سير «آرشي» ما زال يحمل «الزاليل» على ذراعه ، وهو يمشي بخطى واسعة فوق الجليد .. سار إلى جواره كل من سير «فيليب» وسير «رينالد» . حاولا أن يخبراه كيف اكتشفا الشرك الذي أعدّ لهم ، وكيف نجحا في الانطلاق بخزانة الكنز الثمين إلى السفينة ، وسط حشد من مواطنيهم، لكن سير «آرشي» لم يولِ أي اهتمام لكلماتهما ، وبدا كمن يتحاور مع من كان يحملها على ذراعه .

سأل سير «رينالد» :

« ما الذي تحمله هناك على ذراعك ؟ » .

أجاب سير«آرشي» :

« إنها الزاليل . سآخذها معي إلى أسكتلندا .. لن أتركها ورائي .. لن تكون هنا سوى مجرّد عاملة سمك فقيرة » .

قال سير «رينالد» :

« على العكس ، ذلك يبدو كافيًا » .

قال سير «آرشي» :

« لن يعطيها أحد أيّ ملابس ، بل فقط أردأ الأصواف وفراش ضيق بألواح خشنة لتنام عليه .. لكنني سأفرش لها مضجعًا مزوّدًا بأنعم

الوسائد، وسيكون محل راحتها مصنوعًا من الرخام، وسوف ترتدي أغلى أنواع الفراء، وستلبس في قدميها أحذية مرصعة بالجواهر».

قال سير «رينالد» :

« أنت تعدّ لها شأنًا عظيمًا » .

قال سير «آرشي» :

« لا يمكن أن أدعها تعيش هنا ، فمَن مِن بينهم يمكن أن يكون يقظًا لرعاية هذا المخلوق المسكين ؟ ستُنسى كلية قبل أن تنقضي عدّة شهور ، لن يزور أحد محلّ إقامتها ، ولن يفرّج أحد وحدتها . لكنني بمجرد أن أصل إلى الوطن ، سأبني لها سكنًا جليلاً ، حيث ينحت اسمها هناك على حجر صلب حتى لا ينساه أحد . وهناك سآتي إليها كلّ يوم ، وسأكون قد تدبرت بسرور أمر أن يأتي إلى زيارتها أنسباء من بعيد . وستكون هناك مصابيح وشموع مضاءة ليل نهار ، وستجعل أنغام الموسيقى والغناء المكان يبدو كمهرجان أبدي » .

هبّت العاصفة بعنف في وجوههم ، وهم يمضون عبر الجليد ، فانتزعت عباءة «الزاليل» وطيرتها ترفرف مثل راية .

قال سير «آرشي» :

« هل تساعدني بحمل «الزاليل» للحظة ، حتى أحبك لها عباءتها؟».

تناول سير «رينالد» «الزاليل» بين ذراعيه ، وكان خائفًا وهو يقوم بذلك، من أن تنزلق من بين يديه على الجليد ، لكنه سرعان ما قال :

« إنني لم أكن أعرف أن «الزاليل» قد ماتت » .

الفصل العاشر

زئير الأمواج

كان ربان السفينة العظيمة يتمشى ذهابًا وإيابًا طوال الليل عند مؤخرة السفينة الشامخة .. كان الجوّ مظلمًا ، والعاصفة تزمجر حوله سافعة إيّاه بحبات مطر متجمدة وأخرى عادية . لكن الجليد ما زال متماسكًا صلبًا حول السفينة ، وهو ما قد يتيح للربان أن ينام بهدوء في مرقده . لكنه ظلّ متيقظًا طوال الليل ، وكان يضع يده المرّة تلو المرّة على أذنه وينصت . لم يكن من السهل القول ما الذي كان ينصت إليه . كان كلّ بحارته يمكثون على سطح السفينة ، تمامًا مثل كل المسافرين ، الذين يقلهم إلى أسكتلندا ، بعد أن تمدد كل منهم على السطح في نوم سريع ، ولم يكن هناك صوت لأيّ حديث قد ينصت إليه الربان .

هبّت العاصفة غامرة السفينة المحاصرة بالجليد، رامية بنفسها فوقها كما لو أنها تبعًا لعادة قديمة ستدفعها عبر الماء. ولكن لأنّ السفينة ظلت صامدة محكمة الإغلاق ، فإنَّ الريح أمسكت بها مرارًا وتكرارًا. خشخشت كتل الجليد الصغيرة المتدلية من الحبال والبكرات، فجعلت أضلاع السفينة تصرّ وتئن .. كانت صواري السفينة محكمة الشدّ تصدر صوت طقطقة عالية ، كما لو كانت ستنقض على السطح .

لم تكن ليلة هادئة .. كان هناك حفيف مكتوم الـصوت في الهـواء ، بينما أتى الجليد محدثًا أزيزًا ، كانـت هنـاك تمتمـة ورشّـة، عنـدما جـاء تساقط المطر بسرعة .

وتكسّر الجليد واحدًا تلو الآخر ، وانشق بضجة كهزيم الرعد ، كما لو أن سفنًا حربية كانت في البحر تتبادل قذائف ثقيلة .

لكن الربان لم يكن ينصت إلى أي من ذلك .. كان قد مكـث هنـاك متيقظًا طوال الليل ، حتى انتشر ضياء الفجـر الرمـادي عـبر الـسماء ، لكنه لم يكن قد سمع بعد الصوت الذي ينتظره .

ولدت أخيرًا تمتمة غناء رتيـب وسـط هـواء الليـل ، ذات صـوت لطيف هزاز كموسيقى بعيدة ، فأسرع الربان عبر مقاعـد المجـدفين في وسط السفينة إلى أعلى مقدمة الـسفينة الـشامخ حيـث نـام البحـارة ، وناداهم :

« فلتنهضوا ، وخذوا معكم مجاديفكم وخطاطيف القـوارب ! لقـد حان الوقت تقريبًا كي نصبح أحرارًا .. إنني أسمع زئير أغنيـة أمـواج الحرية » .

هجر الرجال النوم ، وهبّوا فورًا ، وتمركزوا بأنفـسهم عـلى جـانبي السفينة ، بينما كان النهار يبزغ ببطء .

عندما أصبح الضوء كافيًـا ، رأوا التغيـيرات التـي جلبهـا الليـل : وجدوا أنّ كلّ الروافد الصغيرة والقنوات ، قد فتحت بعيدًا إلى البحر،

لكن الخليج الذي حوصروا وسط جليده ، ظلّ ثابتًا صـلبًا ، ولم يكـن فيه أيّ صدع يمكن أن يرى .

وفي القناة التي تقود إلى خارج هذا الخليج ، كان الجليـد قـد تكـوّم بنفسه عاليًا مكونًا حائطًا مرتفعًا ، وكانت الأمـواج خارجـة في عبثهـا الحرّ ، تحمل إليه باستمرار على متنها جليدًا طافيًا .

وكان هناك صوت عمليات إبحار بـين الجـزر الـصغيرة .. كانـت تبحر الآن كلّ قوارب الصيادين ، التي أبقاها الجليـد محـاصرة خـارج «مارستراند» .. وارتفعت أمواج البحر عالية ، مـا تـزال تطفـو عليهـا كتل الجليد ، لكن بدا أن الصيادين لم يكن لديهم وقـت لانتظـار ميـاه آمنة هادئة ، فـأبحروا وحلـوا محـل المجـاديف الأماميـة في قـواربهم ، وظلوا متيقظين .. كـانوا يبعـدون كتـل الجليـد الـصغيرة بالمجـداف ، ولكن حين تأتي كتل ضخمة كانوا يعتمدون على الدفة ويبحرون بعيدًا .

وقف الربان عند مؤخرة السفينة يـراقبهم .. كـان يـرى أن لـديهم متاعبهم ، ولكنـه رأى أيـضًا أن كـل قـارب مـنهم قـد انحـرف وراء الآخر، وخرجوا أخيرًا إلى البحـر المفتـوح .. وحـين رأى الربـان كـل عمليات الإبحار تلك تنزلـق إلى الميـاه الزرقـاء ، شـعر بـضيق شـديد المرارة حتى أن الدموع انبثقت من عينيه .. لكن سفينته ظلت كما هي ، وأمامه كان حائط يتكوّم عليه الجليد متراكمًا كبرج يرتفع عاليًا .

لم يحمل البحر في الخارج سفنًا وقوارب فقط ، بل كانت تعبره أحيانًا بعض جبال جليد طافية . كان جليدًا ضخمًا طافيًا ، يتتابع واحدًا وراء آخر ، مبحرًا الآن باتجاه الجنوب ، متألقًا كالفضة في ضوء الصباح ، ليظهر بعد ذلك قرنفليّ اللون ، كما لو أنه غطي بالورود .

لكن عاليًا بين صفير الريح ، سمعت الآن أصوات صيحات مرتفعة ، مثل أصوات غناء ، أو جلجلة أجراس انتصار .. كانت هناك نبرة ابتهاج في تلك الصيحات ، تشرح قلب من يسمعها .. جاءت تلك الأصوات من رحلة طيران طويلة لطيور بجع قادمة من الجنوب .

لكن حين رأى الربان جبال الجليد تتحرك باتجاه الجنوب ، وطيور البجع تطير شمالاً ، سيطر عليه توق شديد ، فاعتصر يديه ، متمتمًا :

« يا ويلي ، أن أظلّ باقيًا هنا .. ألن ينكسر الجليد أبدًا في هذا الخليج؟ أم هل سأبقى هنا عدة أيام أخرى ؟ » .

فقط عندما قال ذلك ، رأى رجلاً يقود زحافته على الجليد .. خرج من القناة الضيقة على جانب «مارستراند» ، واستمر يقود زحافته على الجليد بهدوء ، كما لو أنه لم يعرف بعد أن الأمواج قد بدأت مرّة أخرى تحمل السفن والقوارب . وعندما وصل إلى مؤخرة السفينة ، نادى على الربان :

« هو ، أنت هناك ، يا من تجمدت في الجليد ، هل ينقصك أيّ طعام على السطح . هل تشتري رنجة مملحة ، أو سمك لنج مجففًا ، أو سمك أنقليس مدخّنًا ؟ » .

لم يقلق الربان نفسه بالردّ عليه ، بل هزّ فقط قبضة يده مؤكدًا الرفض .. عندئذ تخطى بائع السمك المتجوّل حمولته ، وأخذ حزمة قش من زحافته وضعها أمام حصانه ، ثم صعد إلى سطح السفينة .. وحين واجه الربان ، قال بجدية :

« لم آتِ اليوم لأبيع سمكًا . لكنني أعرف أنك رجل تخاف الله ، لذلك جئت أطلب منك أن تساعدني على أن أجد فتاة جلبها الأسكتلنديون ليلة البارحة إلى سفينتك » .

قال الربان :

« إنني لا أعرف شيئًا البتة عن إحضارهم أيّة فتاة .. لم أسمع صوت امرأة على سطح السفينة هذه الليلة » .

قال الآخر :

« إنني أدعى «تورارين» ، بائع سمك متجوّل . ربما تكون قد سمعت عني ، كانت تلك الفتاة هي التي تناولت عشاءها مع هر «آرن» في بيته بـ «سولبرجا» ، في الليلة نفسها التي قتل فيها . ومنذ ذلك الوقت ، أخذت الفتاة ، ابنة هر آرن بالتربية ، لتقيم تحت سقف بيتي ، لكنها اختطفت الليلة الماضية بواسطة قتلته ، الذين أحضروها معهم بالتأكيد إلى سفينتك » .

تساءل الربان في رعب :

« هل قتلة هر «آرن» على سطح سفينتي ؟ » .

قال «توរارين» :

« أنت ترى أنني رجل مسكين وضعيف ، لديّ ذراع مشلول ، ولذلك أخشى أن أضطلع بأيّ عمل جريء ينطوي على مخاطرة . لقد عرفت خلال هذه الأيام من هم قتلة هر «آرن» ، لكنني لم أجرؤ على تقديمهم إلى العدالة .. ولأنني أحرص على سلامي ، فقد هربوا وانتهزوا فرصة وأخذوا الفتاة معهم . لكنني قلت الآن لنفسي إن ضميري لن يسكت أكثر من ذلك عن هذا الموضوع ، وسأحاول على الأقل أن أنقذ الفتاة الصغيرة » .

قال الربان :

« إذا كان قتلة هر «آرن» على سطح سفينتي ، فلماذا لم يأتِ الحراس ويقبضوا عليهم ؟ » .

قال «توراين» :

« لقد رجوتهم ودعوتهم جميعًا هذه الليلة وفي الصباح أيضًا ، لكن الحرس فضّلوا ألاّ يخرجوا . وقالوا إن هناك مائة رجل مسلح على سطح السفينة ، لا يستطيعون مواجهتهم . عندئذ فكرت ، بعون الله ، أن آتي إلى هنا وحدي ، وأرجوك أن تساعدني على أن أجد الفتاة ، لأنني أعرف عنك أنك رجل تخاف الله » .

لكن الربان لم يولِ اهتمامًا لطلبه حول الفتاة ، فقد كان ذهنه مشغولاً بموضوع آخر ، وهو ما جعله يقول :

« ما الذي يجعلك متأكدًا من أن القتلة على ظهر السفينة ؟ » .

عندئذ أشار «تورارين» فورًا إلى خزانة خشب البلوط ، التي تنتصب بين مقاعد المجدفين ، قائلاً :

«لقد شاهدت هذه الخزانة كثيرًا في بيت هر «آرن» ، إن لم أكن مخطئًا، وفيها أموال هر «آرن» ، وأينما تكون نقوده ستجد هناك قتلته » .

قال الربان :

«هذه الخزانة تخصّ سير «آرشي» وصديقيه سير «رينالد» وسير «فيليب» » .

قال «تورارين» :

« آي ، إذًا هذا هو الأمر ، إنّها تخصّ سير «آرشي» وصديقيه سير «رينالد» وسير «فيليب» » .

وقف الربان صامتًا لوهلة ، ناظرًا هنا وهناك ، ثم سأل «تورارين»:

« متى تعتقد أن الجليد سينقشع في هذا الخليج ؟ » .

أجاب «تورارين» :

« هناك شيء غريب في الأمر هذا العام .. كنّا نرى الجليد دائمًا ينقشع في هذا الخليج مبكرًا ، لأنه يوجد هناك تيار قوي . ولكن كما هو

متشكل الآن ، فينبغي أن تتوخى الحذر من الاندفاع باتجاه الأرض حين يبدأ الجليد في التحرك » .

قال الربان :

« إنني لا أفكر البتة في أي شيء آخر » .

ومرة ثانية وقف صامتًا لوهلة ، وقد حوّل وجهه باتجاه البحر . وأشرقت شمس الصباح عاليًا في السماء ، وانعكست أشعتها على الأمواج ، واندفعت السفن المحررة أمام الريح هنا وهناك ، وجاءت طيور البحر طائرة من الجنوب بصيحات مرحة ، وبرز السمك قرب سطح الماء متألقًا ، وقفز عاليًا فوق الماء مبتهجًا بعد سجنه الطويل تحت الثلج ، وجاءت طيور النورس ، التي كانت تطير دائرة حول حافة الثلج ، في أسراب عظيمة باتجاه الأرض كي تصطاد في مياهها القديمة .

لم يحتمل الربان هذا المشهد ، فتساءل :

« هل أعتبر صديقًا للقتلة والأشرار ؟ هل أتغاضى عمّا يحدث ، وأرفض أن أرى الإله وهو يبقي بوابات البحر مسدودة أمام سفينتي ؟ هل أدمّر بسبب الأشرار ، الذين اتخذوا مني ملاذًا ؟ » .

تقدم الربان ، قائلاً لرجاله :

« الآن ، أعرف السبب في أننا احتجزنا بينما خرجت كل السفن الأخرى إلى البحر .. يرجع الأمر إلى أنّ لدينا قتلة وأشرارًا على سطح السفينة » .

ثم ذهب الربان إلى الأسكتلنديين المسلحين، الذين ما زالوا نائمين في مضاجعهم، وقال لهم :

« انصتوا إليَّ . حافظوا على هدوئكم لوهلة، لا تهتموا بأيّ صيحات أو جلبة قد تسمعوها على السطح . يجب أن نتبع أوامر الإله ، ولا نتحمّل الأشرار بيننا . إذا أطعتموني ، أعدكم بأنني سأجلب لكم الخزانة التي تحفظ أموال هر «آرن» ، والتي سوف تتقاسمونها فيما بينكم».

ثم قال الربان لـ «توررارين» :

« اهبط إلى زحافتك وأفرغ أسماكك على الجليد ، لأنك سوف تنال حمولة أخرى قريبًا » .

ثم اقتحم الربان ورجاله القمرة، التي نام فيها سير «آرشي» وصديقيه. ورموا بأنفسهم عليهم ليشلوا حركتهم، بينما ما زالوا يغطون في النوم .

وحين حاول الأسكتلنديون الثلاثة أن يدافعوا عن أنفسهم، ضربوهم بفؤوسهم وحرابهم اليدوية ، ثم قال الربان لهم :

« أنتم قتلة وأشرار .. كيف تفكرون أن تفلتوا من العقاب ؟ ألا تعلمون أنه بسببكم جعل الإله كل بوابات البحر مغلقة ؟ » .

وسرعان ما صرخ الأسكتلنديون عاليًا على رفقائهم ، داعين إيّاهم إلى أن يحضروا ويساعدوهم ، فقال الربان :

« لستم في حاجة لأن تنادوهم ، لأنهم لن يأتوا .. لقد نـالوا مخـزون ثروة هر «آرن» كي يتقاسموه فيما بينهم ، وهم الآن يحصون العمـلات الفضية في قبعاتهم . بسبب تلك الأموال ارتكب الشر ، والآن أوقعـت هذه الأموال الجزاء عليكم » .

وقبل أن يتمكن «توررارين» من تفريغ حمولة السمك مـن زحافتـه ، هبط الربان ورجاله إلى الجليد ، وأحضروا معهم رجالاً ثلاثة مقيّـدين بشكل آمن .. كانوا قد أوذوا بشكل خطـير ، وأصـيبوا بـدوار بـسبب جراحهم.

قال الربان :

« لم يتذكرني الإله دون جدوى ، حالما وضحت إرادتـه لي أصـغيت إليها فورًا » .

اقتادوا الأسرى إلى الزحافة ، وقادها «توررارين» إلى جوار الروافـد والألسنة البحرية القريبة داخل البر ، حيث مـا زال الـثلج ثابتًـا حتـى وصل إلى «مارستراند» .

وقف الربان على المؤخرة الشامخة لسفينته ، متأخرًا في فترة مـا بعـد الظهيرة ، متطلعًا باتجاه البحر ، لم يكن شيء قد تغيّر حول السفينة ، بل وشكّل حائط الثلج برجًا لم يسبق أن ارتفع بمثله من قبل .

ثم رأى الربان موكبًا طويلاً من البشر متجهين إلى سـفينته . كانـت كل نساء «مارستراند» هناك ، سواء منهن الشابات أو العجـائز ، وقـد

ارتدين جميعًا ثياب حداد ، كما أحضرن معهن مجموعة من الصبية يحملون تابوتًا .

حين وصلوا إلى السفينة ، قالوا للربان :

« لقد جئنا لنأخذ الفتاة الشابة التي ماتت .. لقد اعترف هؤلاء القتلة أنها دفعت حياتها كي تمنع هربهم ، والآن ، جئنا ، نحن كل نساء «مارستراند» ، كي نأخذها إلى مدينتنا بكل التكريم الذي تستحقه » .

هكذا ، وجدت «الزاليل» وأنزلت إلى الجليد ، وحملت إلى «مارستراند»، حيث بكت كل النساء اللاتي كنّ في المكان ، الفتاة الشابة التي أحبّت شريرًا ودفعت حياتها لتدمّر من أحبت. ولكن بينما تقدّم صفّ النساء، شقت الريح والأمواج طريقها وراءهم ، ومزقت الجليد الذي كان هناك ، وعبرت أخيرًا . وحين وصلوا إلى «مارستراند» مع «الزاليل» ، ظلت كلّ بوابات البحر مفتوحة .



■ المؤلفة

المؤلفة : سلمى لاجرلوف

ولدت سلمى لاجرلوف عام 1858 ، في ملكية صغيرة في مارباكا بجنوب شرق السويد ، وكان أبوها ضابطًا متقاعدًا بالجيش .

ولعلّ من أهم أحداث طفولتها إصابتها بحادث نتج عنه عدم قدرتها على استخدام ساقيها لمدة عامين كاملين ، وعلى الرغم من شفائها إلا أنّ الحادث خلّف لديها عرجًا استمرّ معها طوال حياتها .

كان هناك عنصر حاسم آخر تدخّل في طفولتها ، حين أخذتها الكاتبة آنا فريسل تحت جناحها ، وساعدتها على أن تحصل على فرصة لتمويل تعليمها . وبعد أن قضت سنة تمهيدية ، التحقت سلمى عام 1881 بكلية تدريب المدرسات العليا في أستوكهولم .

تخرجت في تلك الكلية عام 1885 ، وفي العام نفسه مات أبوها ، فاضطرت أمّها إلى بيع بيت الأسرة في مارباكا لسداد الديوان ، ثم انتقلت سلمى لتعيش مع أمها وخالتها في لاند سكرونا ، حيث قامت بالتدريس في مدرسة ثانوية للبنات ، وبدأت تكتب في وقت فراغها .

في عام 1890 وبتشجيع من صوفي آدلر ، قامت سلمى بالاشتراك في مسابقة تعدها المجلة نفسها ، ففازت بالجائزة الأدبية الأولى .

في عام 1894 نشرت سلمى مجموعة قصص بعنوان «صلات خفية» ، ثم نالت منحة من الأكاديمية السويدية ، أتاحت لها الفرصة كي تترك التدريس وتتفرغ تمامًا للكتابة .

وفي عام 1897 ، سافرت إلى إيطاليا ، حيث كتبت هناك رواية «معجزات عدو المسيح» ، التي تجري أحداثها في جزيرة صقلية ، واستفادت فيها من أسطورة شخصية المسيح طفلا ، وفي عامي : 1901 و1902، قامت بزيارة إلى مصر وفلسطين، حيث زارت القدس، وكتبت بتأثير منها رواية «الأرض المقدسة» ، عن فلاحي السويد، الذين هاجروا إلى مدينة القدس ، وقد حققت تلك الرواية نجاحًا فوريًّا.

وفي عام 1903 ، نشرت مجموعة قصصية اسمها «أساطير المسيح» . وفي عام 1906 نشرت رواية «مغامرات نلز العجيب» ، فنالت نجاحًا منقطع النظير داخل السويد وخارجها ، حيث ترجمت إلى معظم اللغات العالمية.

وفي عام 1907 ، اكتشفت أن منزل الأسرة القديم في مارباكا ، الذي عاشت فيه طفولتها ، معروض للبيع ، فاشترته وعملت على تجديده ، وأمضت فيه سنوات عديدة ، أعادت أثناءها شراء الأراضي المحيطة به.

وفي عام 1909 ، نالت جائزة نوبل في الآداب ، فكانت أول كاتبة تنال هذا الشرف . ثم قلَّ إنتاجها الأدبي خلال سنوات الحرب العالمية الأولى ، نتيجة كونها من دعاة السلام ، وهو ما تسبب في منع كتبها في تلك السنوات ، لكنها استمرت في بذل جهود هائلة من أجل مناصرة قضايا السلام ، كما اهتمت في الوقت ذاته بقضايا المرأة .

استمرت في الإنتاج الأدبي حتى نشرت عام 1930 «ذكريات طفولتي» ، وفي عام 1932 «يوميات سلمى لاجرلوف» ، ووافاها الأجل في 16 مارس 1940 .

حسين عيد

ناقد وروائي ومترجم ..

ولد عام 1944 .. حاصل على بكالوريوس تجارة عام 1967، و دبلوم دراسات عليا في الإحصاء والمحاسبة. يمارس كتابة المقال والقصة والرواية والترجمة، وله أربعة وعشرون كتاباً منشورا ، على النحو التالي:

• **أولا : النقد الأدبي : (12 كتابا)**

1) « جارسيا ماركيز وأفول الدكتاتورية» الهيئة المصرية العامة للكتاب 1988.

2) « دراسات أدبية في القصة والرواية » الهيئة العامة للثقافة الجماهيرية1989.

3) «يوسف إدريس :الصراع والمواجهة» (طبعة أولى) الهيئة العامة للثقافة الجماهيرية1991، (طبعة ثانية) دار الوفاء بالإسكندرية 1999.

4) « الإبداع الأدبي : المصادر والمخاطر» (طبعة أولى) الهيئة المصرية العامة للكتاب1995 ، (طبعة ثانية) مكتبة الأسرة1997.

5) « فتحي غانم : الحياة والإبداع » (طبعة أولى) الهيئة العامة للثقافة الجماهيرية 1995 ، (طبعة ثانية) الهيئة العامة للثقافة الجماهيرية 1998 .

6) «رحلة الموت في أدب نجيب محفوظ » الهيئة العامة للثقافة الجماهيرية 1997 ، (طبعة ثانية) الدار المصرية اللبنانية 2007.

7) « نجيب محفوظ : سيرة ذاتية وأدبية»(طبعة أولى) الدار المصرية اللبنانية 1997 ، (طبعة ثانية) الدار المصرية اللبنانية 2007 .

8) «مفهوم السلطة والدين:في تجربة فتحي غانم الإبداعية» مركز الإنماء الحضاري – حلب 1999 .

9) « المثقف العربي المغترب »الدار المصرية اللبنانية 1999 .

10) « نجيب محفوظ : رواية مجهولة وتجربة فريدة » الدار المصرية اللبنانية 2002 .

11) « القصة القصيرة عند ثروت أباظة وقضايا المجتمع» نادي القصة بالقاهرة 2002 .

12) «سحر الإبداع : مع كتاب عرب وأجانب» الدار المصرية اللبنانية 2004 .

- **ثانيا : الروايـــة : (5 روايات)**

1) « الهجرة نحو المدن القديمة » المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة 1984 .

2) « المشـروع » دار الشئون الثقافية – بغداد 1987 .

3) « مذكرات حكمت فهمى »دار الحرية 1990 .

4) «عين النمس »دار الإنماء الحضاري – حلب1997 .

5) « عصافير صغيرة زرقاء »دار شرقيات – القاهرة 2000 .

• ثالثا : القصة القصيرة : (مجموعتان قصصيتان)

1) « قطار الحادية عشرة » دار المعارف 1983

2) « لو تظهر الشمس » الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985

• رابعا : الترجمة : (خمسة كتب)

1) « ذلك العالم المدهش : حوارات مع كتاب عالميين» الهيئة العامة لقصور الثقافة2002 .

2) « الرواية في إفريقيا» ج . م كويتزي ، الدار المصرية اللبنانية 2004

3) «القصة: المادة، البنية، الأسلوب، مبادئ الكتابة للسينما» روبرت مكي- المشروع القومي للترجمة2007 .

4) «حوارات نادرة مع كتاب نوبل» الدار المصرية اللبنانية 2007 .

5) «عينا النمس: قصص من أمريكا اللاتينية» دار أزمنة بالأردن 2007 .

صدر من هذه السلسلة

اللا أخلاقي	تأليف أندريه جيد؛ ترجمة وتقديم محمود قاسم.
العجوز والبحر	تأليف إرنست هيمنجواي؛ ترجمة وتقديم غبريال صالح.
الأم الكبيرة	تأليف جابرييل جارسيا ماركيز؛ ترجمة وتقديم محمود علي مراد.
صحراء الحب	تأليف فرانسوا مورياك؛ ترجمة وتقديم فتحي العشري.
شعب يوليو	تأليف نادين جورديمير؛ ترجمة وتقديم أحمد هريدي.
أمير الذباب	تأليف وليم جولدينج؛ ترجمة وتقديم عبد الحميد فهمي الجمال.
الكنز	تأليف سلمى لاجرلوف؛ ترجمة وتقديم حسين عيد.
أنطوانيت	تأليف رومان رولان؛ ترجمة وتقديم فتحي العشري.
الغريب	تأليف ألبير كامي؛ ترجمة وتقديم محمد غطاس.
أحلام الناي	تأليف هرمان هسه ؛ ترجمة وتقديم محمد فؤاد عطا الله.
الأم	تأليف جراتسيا دليدا؛ ترجمة وتقديم محمود علي مراد.
ولم يقل كلمة	تأليف هاينرش بل؛ ترجمة وتقديم ياسين طه حافظ.
مراعي الفردوس	تأليف جون شتاينبك؛ ترجمة خديجة خطاب.
مغامرات نلز العجيب	تأليف سلمى لاجرلوف؛ ترجمة شوقي جلال.
رياح الشرق رياح الغرب	تأليف بيرل باك؛ ترجمة غبريال وهبة.
الآلهة عطشى	تأليف أناتول فرانس؛ ترجمة وتقديم مصطفى كامل.
إيزابيل	تأليف أندرية جيد ؛ ترجمة وتقديم فتحي العشري .

صدر من هذه السلسلة

تصميم ورسوم : محمد حجى

الدار المصرية اللبنانية

